"براءة أم تبرير"

المفهوم الكتابي لعقيدة التَّبرير بالإيمان

چـيمس بيوكانـان

اسم الكتاب: براءة أم تبرير
مترجم عن كتاب: Not Guilty
اسم المؤلف: James Buchanan

تقـديم النـاشر

عقيدة التبرير هي إحدى أهم دعائم التراث الإنجيلي الذي وضَّح ورسَّخ مفهومها الصحيح، كما أوحى الروح القدس للأنبياء والرسل الأطهار. الحكم الإلهي العادل على تعدِّي الإنسان وقع فعلا على المسيَّا الموعود، حمل الله الذي رفع خطية العالم، وبالتالي فإن كل من يؤمن به ويَثِق في كفاية كفَّارته، قد عُفِيَ عنه وأصبح مُبرَّرا. إذًا النعمة الإلهية المجانية هي التي حققت الحُكمَ ببراءة كل من يتمتع بيقين الإيمان بالمسيح.

فـهرس المحتويـات

الصفحة

مقدمـة المعرِّب 5

مقدمة 7

تمهيد 15

الجزء الأول: *تاريخ عقيدة التبرير* 17

محاضرة 1. التَّبرير في كتب العهدِ القديم. 19

محاضرة 2. التَّبرير كما هو في كتب العهد الجديد. 25

محاضرة 3. التَّبرير بحسب تعاليمِ آباء الكنيسة حتى 1200م. 31

محاضرة 4. التَّبرير كما عُلِّم في عصرِ الإصلاح البروتستانتي. 37

محاضرة 5. فكر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عن التَّبرير بعد عصر الإصلاح. 41

محاضرة 6. آراءٌ بُروتستانتيَّة متعدِّدة عن التَّبرير بعد عصر الإصلاح. 45

محاضرة 7. آراء عن عقيدة التَّبرير في الكنيسة الأنجليكانية منذ عصر الإصلاح. 49

الجزء الثاني: *شرح العقيدة* 53

محاضرة 8. شرح العقيدة "معنى كلمة تبرير كما استُخدمتْ في الكِتاب المقدس". 55

محاضرة 9. ما هو التَّبرير؟ 59

محاضرة 10. التَبرير وناموس الله. 63

محاضرة 11. التَّبرير وحياة المسيح وموته. 67

محاضرة 12. استحقاقاتُ المسيح هي الأساس الوحيد لتبريرِنا. 73

محاضرة 13. علاقة التَّبرير بنعمةِ الله والمجهود البشري. 77

محاضرة 14. علاقة التَّبرير بالإيمان. 81

محاضرة 15. التَّبرير وعمل الرُّوح القدس. 85

مُلخَّصٌ

مقدمة المعرِّب

مُنْذُ أنْ سقطَ الإنسانُ فِي خطيّةِ مَعصية الله، وصار عدوًّا لنفسِهِ، وللآخرين، ولله أيضًا، رَضَخَ لسطوةِ الخطيّة، التي أفسدته كُلِّيّة، وصار فريسة للشعورِ بالذنبِ، كلما اقترف إثما.

وثَمَّة مُحاولات إنسانية قد بُذلِت لِرفعِ الشعور بالذَّنبِ، والإحساس بالخطيّة، فقد ادَّعَى البعض أنَّ التَّدينَ والأخلاق الحميدة، إنَّما هما الطريق الصائب للمثُولِ أمام الله بِدون خطيَّةٍ، ورأى بعضٌ آخر في الأعمالِ الصالحة طريقًا للحصولِ على البِرِّ في نظرِ الله. غير أنّ كُلَّ مُحاولاتِ الإنسان باءت بفشلٍ ذريع، الأمرُ الذي حَطَّمَ رجاء الإنسان في اقتناءِ الخلاص.

وقد صَرخَ رجال الكتاب المقدس مَرَّات عَديدة، طالبين أنْ يعرفوا الطريقةَ الصحيحةَ التي تُحقِّق بل تَضمن أنْ يصير الإنسان بارًّا أمام الله، فهذا أيوب يتساءل في عُمق بلاياه:

"... . فَكَيْفَ يَتَبَرَّرُ الإِنْسَانُ عِنْدَ اللهِ؟" (أي2:9ب)، "مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى يَزْكُو، أَوْ مَوْلُودُ الْمَرْأَةِ حَتَّى يَتَبَرَّرَ؟" (أي14:15).

وفي إحدى ترانيم المَصاعد، المُسجلة في سِفْرِ المَزامير نقرأ:
"إِنْ كُنْتَ تُرَاقِبُ الآثَامَ يَا رَبُّ يَا سَيِّدُ فَمَنْ يَقِفُ؟" (مز3:130).
أمَّا سليمان الحَكِيمُ فقد قال:
"لأَنَّهُ لاَ إِنْسَانٌ صِدِّيقٌ فِي الأَرْضِ يَعْمَلُ صَلاَحًا وَلاَ يُخْطِئُ" (جا20:7).
وغيرهم مِمَنْ شعروا بِثِقلِ الخطيّةِ، واشتاقوا أنْ يقفوا أمام الله أبرارًا.

ولكن ما الحل؟

لقد رأى الله في قصدِهِ الأزلي أنْ يُبرِّر شعبَهُ (المُختارين) بحياةِ وموتِ ابنه يسوع المسيح؛ لذا فالتَّبرير هُو كما ورد في أصول الإيمان: فِعلُ نِعمة الله المجانيَّة، الذي به يَغفرُ خطايانا جميعها، ويَقبَلنا كأبرارٍ أمَامَهُ، وذلك لأجلِ بِرِّ المسيح، الذي يُحسَبُ لنا، والذي نَقْبَلُهُ بالإيمان. بذلك فإنَّ الله لم يَعُدْ ينظُر إلى أيَّةِ خطيةٍ، إذ وَضَعَ خطايا شعبه كلها على المسيحِ، الذي بدورِهِ، وَضَعَ نفْسه وأطاعَ حتى المَوْت مَوْت الصليب. هذا الذي جُعل خطية لِنَصيرَ نحن بِرَّ الله فيه. ولَمْ يَضع الله خطية شعبه على المسيحِ فحسب، بل حسب بِرَّ المسيح لشعبِهِ. ويتضمن هذا التَّبرير أمريْن:

الأول: رَفعُ الدَّينونة وقَصاص الخطية، والثاني: إرجاعُ الإنسان للتَّمتعِ بِرضى الله.

وهكذا، أصبح المُختارون أبرارًا، ليس لسببٍ فيهم، بل بسببِ بِرِّ المسيح واستحقاقات عمله الكفاريِّ مِنْ أجلِهم، الأمرُ الذي يضمن لهم تحريرًا مِنْ عُقدةِ الشعور بالذنْب، وثِقل الخطية، والأعظمُ مِنْ هذا، القَبول الدائم في مَحضرِ الله.

هذا هو موضوع هذا الكتاب، الذي هو مُلخَّص لأَحدِ الأعمال اللاهوتية العظيمة، وقد عُرِّب عن تَلخيصٍ للكتاب الأصلي الذي صدر عام 1867، تحت عنوان "العقيدةُ الكِتابيَّة عَنْ التَّبريرِ" ومُؤلِّفه أَحدُ لاهوتيِّي اسكُتلَندا، فِي القَرنِ التاسع عشر، ويُدعَى جيمس بيوكانان.

مقدمة

هل تتمتع كنائس بريطانيا والعالم الغربي بحالة جيدة في الوقت الحالي؟ لا يوجد من يجيب عن هذا التساؤل بـ "نعم" إلا إذا كان لا يرى حالة الكنيسة، فبتناقص العضوية وتضاؤل الاهتمام بالتبشير، والاهتمام بالإثارة الدينية أكثر من التقوى والكرازة، لا بد أن يكون الحُكم سلبيًّا، يُخفَّف فقط بحقيقة أن هناك استثناءات ملحوظة كثيرة من هذا التوعك العام.

وإذا حاولنا تحليل أسباب هذا الضعف سنجد الإجابة - جزئيا على الأقل - في قول مارتن لوثر المأثور بأن "عقيدة التبرير بالإيمان" هي اختبار لصمود الكنيسة أو فشلها، أي هي التي تفصل بين الكنيسة التي تتمتع بحالة جيدة وتلك السقيمة؛ فمع إهمال هذه العقيدة الأساسية، (وفي حالات عديدة الجهل بها) لا غرابة أن نجد الكنيسة في ضعف بدلاً من القوة. والواقع أن ما يبدو أحيانا قوة هائلة تتحول إلى حالة من الانفلات العقلي عوضا عن النشاط الهادف.

فهل حقًّا أُهمل هذا التعليم أو قد أُسيء فهمه؟ الإجابة على هذا السؤال قد نجدها كثيرًا في العظات الكرازية، حيث يُستحث الخطاة على التوبة والرجوع عن خطاياهم ووضع ثقتهم في المسيح وحده. إلى هذا الحد يُعَد الأمر جيدا - ولكن ما هو الوعد للتائب؟ غفران الخطايا والحياة الجديدة - هذه هي الإجابة المعتادة، وقد حكم العهد الجديد على هذه الإجابة بأنها غير كافية؛ حيث أن الغفران ليس هو التبرير، ووفقًا لرومية 5-8 فإن نمط الحياة الجديدة ينشأ عن التبرير.

ويصبح الموقف أسوأ عند تقديم البشارة للأطفال، فغالبا ما يُستحث الأطفال على حب الرب يسوع، حيث أن ملخص الوصية الأولى للناموس هي محبة الرب من كل القلب. ولكن الناموس، كما أشار إليه بولس في الثلاث

أصحاحات الأولى من رومية، لا يُعطي الخلاص ولكنه يجعلنا ندرك خطايانا وجُرمنا. الواقع أن محبة الله ومحبة المسيح الذي مات لأجلنا نراها في رومية 5:5 على أنها من ***نتائج*** التبرير بالإيمان، وفي غل 22:5 نجد أن المحبة هي واحدة من ***ثمر*** الروح.

لكن إهمال تعليم التبرير بالإيمان لم يقتصر على مجال التبشير والتعليم، ولكننا نجده أيضا في كيفية الحياة المسيحية، ما اعتدنا على تسميتها تقوى! وقد أضاف Handley Moule of Durham (1841-1920) المزيد إلى بيان مارتن لوثر بالقول: إن عقيدة التبرير بالإيمان ليست فقط العلامة الفاصلة التي تميِّز بين الكنيسة الراسخة والأخرى الفاشلة، ولكنها تميِّز أيضا بين الروح الثابتة في المسيح والأخرى البعيدة عنه! وتُعَد هذه الإضافة إضافة ضرورية، ووفقاً لمعايير العهد الجديد لا يستطيع المرء أن يبدأ حياة مسيحية سليمة إلا بعد أن يستوعب ماذا يعني تبريره بالإيمان.

ولا شك أن النمو في التقوى ليس واجبا دينيا ولكنه رد فعل يملأه الامتنان لنعمة الله. إن التبرير هو العصب المركزي لهذا الامتنان، وإذا أراد المسيحي أن يصمد في مواجهة الكثير من العداء والإحباط - حتى في وجود الإخفاقات الشخصية - لن يستطيع القيام بذلك إلا من خلال إيمانه القوي بالمثابرة النهائية. وأكرر أن الفهم العميق للتبرير هو ما سيمُدنا بهذه الثقة الراسخة.

عندما كتب Buchanan كتابه العظيم عن التبرير - والذي أُعيد نشره أولا كاملاً، ثم الآن في شكل ملخصات - مما يشير إلى قيمته المستمرة - لم يواجه الجدال الذي تزايد اليوم؛ على وجه التحديد، المناقشات المسكونية عن توحيد الكنيسة، ففي أيامه كان رفْض روما للوثر ولوجهة نظر الإصلاح أمرا مقبولا بوضوح من روما ومن البروتستانت أيضا، أما اليوم وتحت ضغط توحيد الأنجليكانيين وروما، عاد موضوع التبرير ليطفو فوق السطح كأمر حاسم.

وقد قام Hans Kung المشهور عالميا (والذي كتب قبل أن يحرمه البابا من مكانته كلاهوتي روماني كاثوليكي) بإنتاج كتاب خطير حول هذا الموضوع، وقد ناقش الروم الكاثوليك الأمريكيون واللوثريون الأمريكيون هذا الكتاب وقدموا عنه تقريرا قويًّا. وحديثاً قامت Anglican Roman Catholic International Commission (ARCIC) بإصدار تقريرها عن الخلاص، وهكذا أصبح هذا الموضوع على قمة جدول الأعمال وقد أصبح هذا هو الوقت المناسب لتوسيع نطاق القراءة لاختبار التفسير المُحكَم لـ Buchanan.

وهكذا إذا نظرنا إلى التبرير بالإيمان على أنه أساسي للمسيحي، كما أنه موضوع حيوي للكنائس وأيضًا حيوي للعلاقة بين الكنائس - سنكتشف ما تعنيه هذه العقيدة بالفعل. وبالطبع سيكون الكتاب المقدس هو مرشدنا في هذا الموضوع، مما يعني أن مضمون كل دراستنا هو التأكيد الكتابي على "أولوية نعمة الله"؛ فالله قد أخذ المبادرة عندما خلق، كما أنه أخذ الخطوة الأولى في عمل الخلاص. وتفسيرنا لأي عقيدة في الكتاب المقدس يجب أن يتأصل في إيماننا الراسخ بأننا - دون أي شرط أو أهلية - مدينون كليًّا للنعمة الإلهية. ولقد وضَّح بولس هذا الأمر بإيجاز وبشكل شخصي جدا "ولكن بنعمة الله أنا ما أنا" (1 كو 10:15).

هذا يستبعد أي ذكر للاستحقاق البشري، فلا يمكننا أن نكسب رضى الله، كما لا نستطيع أن نقدم أي فضل من ذواتنا، فالله لن يكون مدينًا لنا، ومن ثم لن يُكرَه على مكافأتنا، أما نحن فدائما مدينون له. ولقد شدد بولس على هذه النقطة وبيَّن أسبابها في أف 2:8-9 "لأنكم بالنعمة مُخلَّصون، بالإيمان، وذلك ليس منكم، هو عطية الله، ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد".
هذا يعني أن إيمان المبرَّر لا يجب أن يُنظر إليه على أنه مساهمة الخاطئ، فالتبرير ليس مكافأة عن إيمان، لنا أي فضل فيه، لكنه إيمان هو في حد ذاته عطية من الله. فالإيمان هو اليد الفارغة الممتدة لتستقبل الهبة. وقد تكون

معجزة شفاء الرجل ذي اليد اليابسة هي أفضل توضيح، فلقد احتاج هذا الرجل لقوة المسيح الخارقة ليتمكن من الاستجابة إلى أمر الرب بأن يمد يده اليابسة (مت 12:10-13).

ومن أهم عبارات عقيدة حركة الإصلاح البروتستانتية كانت في المقالات التسعة والثلاثين لكنيسة إنجلترا، ولقد كانت هناك ترجمة لاتينية لهذه المقالات. كان في مقالة التبرير استخدام دقيق لحرفَيْ جَرٍّ من اللغة اللاتينية أبرزا حقيقة عدم قدرة الإنسان على اكتساب التبرير، وكانت الكلمتان propter بمعنى "على حساب" و Per وتعني "من خلال". كان تعليم هذه المقالات أننا مبرَّرون "على حساب" استحقاق المسيح "من خلال" (أي بواسطة) الإيمان، ولهذا لا يكون هناك مجال لتهنئة الذات، فإذا كنا استجبنا بالإيمان فستكون استجابتنا مثل تلك التي كانت لليديًا في فيلبي - "ففتح الرب قلبها لتُصغي إلى ما كان يقوله بولس" (أع 14:16). مثل هذا الإيمان يبزغ من التوبة، عندما نعي أننا خطاة. علاوة على ما سبق نحن مدينون بالامتنان لله بأننا ابتعدنا عن الخطية. ولقد ذكر بطرس في عظاته أن التوبة والغفران هما هبة الله الكريمة - "هَذَا رَفَّعَهُ اللهُ بِيَمِينِهِ رَئِيسا وَمُخَلِّصًا لِيُعْطِيَ إِسْرَائِيلَ التَّوْبَةَ وَغُفْرَانَ الْخَطَايَا." (أع 5:31) ولقد أكد تقرير بطرس لنقَّاده بأورشليم على ذات الحقيقة، وحاز منهم على العرفان الممتَنّ: "فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ سَكَتُوا وَكَانُوا يُمَجِّدُونَ اللهَ قَائِلِينَ: «إِذاً أَعْطَى اللهُ الأُمَمَ أَيْضًا التَّوْبَةَ لِلْحَيَاةِ" (أع 11:18).

إذًا فالإيمان لم يكن هو ما تمسك به معارضو لوثر أي القبول العقلي للتعليم الجازم للكنيسة، لكنه استجابة القلب التي ينتج عنها الاعتماد البسيط على المسيح، وإجابة الله على هذا الإيمان البسيط، هي تبرير الخاطئ. بذكر التبرير بهذه الكيفية، اتسعت الفجوة بين لوثر وروما ولا تزال تلك الفجوة متسعة إلى اليوم! حيث أن جوهر عدم الاتفاق يكمن في معنى كلمة "ليبرِّر"،

فهل هي تفيد بأنه يجعله بارًّا" كما علَّمت روما؟ أم إنها "تُعلن أنه بار"، كما أكد لوثر وكما أكد بولس في رسائله لأهل رومية وأهل غلاطية؟

ولئلا يعترض البعض على كون هذه مشادة لاهوتية مَحْضة عن تفاصيل ثانوية، فمن المهم التأكيد على مدى أهمية هذا الموضوع، وذلك بسبب صِلته القوية بموضوع الضمان: فهل أقول بثقة "أعلم إنني مخلَّص وسأذهب إلى السماء؟" أم بالكاد "أتمنى أن أذهب إلى السماء؟" من الواضح أن العهد الجديد لا يعلِّم فقط عن الضمان الكامل للأبدية، لكنه يعرض رجالا ونساء أظهروا مثل هذه الثقة البهيجة.

فإذا كانت روما على حق، والتبرير يعني جعل الخاطئ بارًّا، لكان أساس ضماننا هو مدى صلاحنا الشخصي الذاتي واستمراره، فبالنسبة للمسيحي المدرك للخطية الساكنة فيه، ولمعرفته بإخفاقه الآثم، فذلك الأساس للضمان غير ثابت. إذن لا غرابة أن تعليم مجمع ترينت المضاد للإصلاح Counter-Reformation Council of Trent بأنه: "لا يستطيع أحد أن يعرف بتأكيد معصوم للإيمان بأنه قد قَبِل نعمة الله" (قسم 6 من الفصل 9). والموضوع باختصار هو إذا ما كان التبرير له صلة بخصائصنا الأساسية أم بوضعنا الجديد أمام الله. هل نحن مقبولون بسبب ما نقوم به لتحسين الصلاح الذي صُبَّ داخلنا أثناء المعمودية، أم نُعتبر أبرارًا، بينما الواضح أننا ما زلنا خطاة؟

إن الكتاب المقدس يدعم بكل وضوح بيان لوثر بأن المسيحي "مبرَّر وخاطئ في نفس الوقت." إن أساس قبولنا ليس برَّنا الموروث ولكنه بر المسيح الذي حسبه الله لنا عندما وضعنا ثقتنا في المخلِّص.

لقد "أشرق النور" على لوثر عندما كان يدرس الرسالة إلى رومية وفَهم هذه النقطة، فبالطبع يطلب الله البار، البر، ومثل هذا البر بعيد المنال بسبب خطيتنا، وهكذا أظهر الله البرَّ الكامل في ابنه، البِرَّ الذي نضع عليه كل ثقتنا.

وكل هذه الأمور تقودنا إلى سؤال آخر أكثر أهمية وهو: ماذا يقصد الكتاب المقدس إذن بالبِر؟ والإجابة على هذا السؤال موجودة في اللقب الذي مُنِح للمخلِّص: إنه يسوع المسيح البارّ (1 يو 1:2)، إنه هكذا لأنه كان دائمًا يفعل ما يسُرُّ قلب الآب سواء أثناء خدمته على الأرض أو أثناء خدمته السمائية، وعلى العكس من ذلك فإن البشر ليسوا أبرارًا لأننا نفشل أن نفْعل مشيئة الله بل نقوم بما هو معاكس للإرادة الإلهية. هناك خطايا الإغفال أو الإهمال وأخرى لارتكاب جُرم، وهذه ليست إلا أعراضًا راجعة لحقيقة طبيعتنا الساقطة وأخلاقنا الشريرة.

إذن ما الذي يوصل لنا معرفة ما يطلبه الله، وأيضًا يعرِّفنا إخفاقنا الأثيم؟ توجد الإجابة في ناموس الله، كما ذكرها بولس في الرسالة إلى رومية؛ فالوصايا مكتوبة في ضمير كل إنسان، وكُتبت بتفاصيلها الواضحة في الأسفار المقدسة، وهذا يعني أن البِرَّ يعني أساسا حفظ ناموس الله، والشر هو كسر ناموس الله، ولهذا فتَبِعات كسر الناموس خطيرة جدًّا، حيث يُعلن غضب الله في قضاء الله ودينونته.

ولهذا لا يوجد سوى مثال واحد وكامل لبِرِّ الإنسان، إنه مثال الإنسان يسوع المسيح، فهو وحده من يستطيع أن يقول: "هأنذا أجيء .... لأفعل مشيئتك يا الله" (عب 7:10؛ وقارن مز 40:6-8).

إذنكان كل ما قدمه يسوع هو مثال للبر الكامل، فلا بد أن يغمرنا اليأس وذلك لعدم قدرتنا على الوصول إلى مثل هذا المستوى، غير أن الإنجيل لا

يخدعنا ولا يهزأ بنا بطلب مستوٍ لا يمكن الوصول إليه، فهذا البر حُسب لنا كما حُسبت الخطية عليه، كما أشار بولس في 2كو 21:5 "لأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، خَطِيَّةً لأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ."

وحتى نقدِّر الغنى الكامل للتبرير، من المفيد أن نرى برَّ المسيح من وجهتين: فمن الوجهة الأولى هو حامل الخطايا العظيم الذي وضع على نفسه ذنب كاسري الناموس وتحمَّل العقاب الذي تطلبته العدالة الإلهية. إنه الشخص "الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة (1 بط 24:2)، وهكذا تحررنا من الذنب وأُعتِقنا من الدينونة. من الوجهة الثانية نراه الشخص الذي لم يقف فقط أمام الله كبديل إلهي عن كاسري الناموس، لكنه أيضًا، الحافظ المطلق للناموس كمُمَثل لنا، وحفظه للناموس لم يكن فقط حفظًا لنصوصه، بل من حيث الدافع والروح. ولقد كان هذا البر الإيجابي هو الذي حُسب لنا، وهكذا فإننا تحررنا من ذنب كسر الناموس، كما يُنظر لنا الآن كحافظي الناموس، وذلك بسبب إيماننا في المسيح.

فالإجابة المقتبسة كثيرًا من تلاميذ مدارس الأحد، صحيحة بشكل جزئي عندما قال الطفل إن معنى تبرَّرنا أنه سيُنظر إليَّ "كما لو كنت لم أرتكب أي خطية".

وكخطاة قد غُفرت لنا خطايانا، نبتهج بتلك الحقيقة، بعيدا عن كل تَوْرية! (كلام ذو معنيين) فالتبرير يعني أكثر من ذلك، فهو كما لو كنتُ شخصا حفظ ناموس الله بالتمام، فأنا ليس فقط مغفورة خطاياي، لكني مقبول بالتمام.

والجدير بالذكر أن إدراك بولس بغنى تمام التبرير، هو ما أعطاه هذه الثقة البهيجة وجعله يكرِّس نفسه للمسيح، وحثَّه على التبشير بهذه الأخبار السارة. وقد كان ذلك هو نفس اختبار الغفران الذي رُبِط بنعمة قبول الله للخاطئ

المبرَّر، الذي طَرد شكوك لوثر المؤلمة، وجعله مستعدًّا ليتحدى قوة البابا والإمبراطور، وهذه هي نفس الرسالة التي ستظل تحرِّك الخطاة المبرَّرين لإطاعة الله، كما ستضع الكنائس على طريق بنَّاء للتعبد الكتابي والشهادة الكتابية.

هربرت م. كارسون
لِيْستَر
1990

Herbert M. Carson
Leicester
1990

تمهيد

مِثلمَا يستمر العُلماء في تسجيل اكتشافات جديدة حول طبيعة الكون، هكذا فإنَّ دراسة الكتاب المقدس يمكن أنْ تؤدي إلى نتائجَ وفهمٍ جديدٍ لحقائقه. من هذا المنطلق نرى مبرِّرا قويا لننظر من جديد لحقيقة التبرير، بالرغم من أنّ لوثر قد وضع تعريفًا جيدًا لها في عصر الإصلاح.

علاوةً على ذَلِكَ فإنَّ هذه العقيدة ستصبح جديدة لِكل جيلٍ جديد مِن المؤمنين، وللكثيرين مِمنْ يَدْعون أنفسهم مؤمنين، لكنهم لم يختبروا معنى هذا الحقّ، في حياتهم الشخصية لسبب أو لآخر.

ليس هذا فقط، بل إن فهم عقيدة التَّبرير، يُعَدُّ أفضل دفاع ضِد ضلالتيْن شائعتيْن في مُجتمعِنَا اليوْم (يقصد المؤلف عهده): الأولى هي جدال الكثيرين بأنهم لن يؤمنوا إلا بما يُمكن لعقولِهِمْ البشريَّة أنْ تبرهنه. أولئك هُمْ "العقلانِيونَ"، أما الثانية فهي الشعور بالراحةِ والرِّضا في ممارسة الطقوس والواجبات الدينيّة. أولئك هم "التقليديون. "

ضلال العقلانيِّ راجع إلى جهله وعدم رغبته في أن يؤمن بحق الله عليه، أما التقليدي فإنه يفترض أن ممارسته للطقوس فيها الكفاية لإرضاء الله، وضلاله أنه ليس لديه الإحساس السليم بخطيّتهِ وإثمه، ولا بعظمة ما فعل المسيح لأجلِ الخُطاة.

وتتضمن تعاليم الكتاب المقدس عن التَّبرير بالإيمان:

- دراسة حقوق الله المُقدَّسة والثابتة علينا جميعًا.
- دراسة ذنوبنا وخطايانا غير المبررَّة في نظرِ الله.
- دراسة الخلاص المجيد الذي تَمَّ تدبيره بيسوع المسيح، الذي وفَّى عدل الله نيابة عن الخُطاة. لذلك، لكي نفهم التّبرير، يَجب أنْ نهرب من أخطاء كل من العقلانيين والتقليديين.

جدير بالذكر أنَّ العقيدة الكتابيّة للتَّبرير، تَمَّ تعليمها بشكلٍ خاص في عصر الإصلاح، لكن لا يعني هذا أنها لم تكن معروفة تمامًا قَبل الإصلاح؛ فهذا الحق

موجود في كل من العهديْن القديم والجديد، وموجود أيضًا في العديد مِنْ كتاباتِ آباءِ الكنيسة الأَوائل.

لقد ظهر مَنْ هاجموا هذه العقيدة على اعتبارِ أنها ليستْ حقًّا كتابيًّا، بدءًا من القرن الثاني الميلادي. ويجب أن نتذكر أنَّ عدم الإيمان الذي امتدت جذوره بعمق في قلوبِ البشر جميعا، يُنكر الحاجة إلى التَّبريرِ التي يَتكلم عنها الكتاب المُقدس.
كل هذا يجعل دراسة هذا الحق أمرًا حيويًّا لنا.

د. جيمس بيوكانان (1867م)

الجُزءُ الأَول

تاريخ عقيدة التَّبرير

المحاضرة الأولى

التَّبرير في كتب العهدِ القديم

في هذه المحاضرات سنجد أن التَّبرير يَعني أن الإنسان يحسبه الله ويُعامله على أنه لم يرتكب أية خطية وأنه يمتلك قَداسةً كاملةً. مِثل هذا الإنسان يتمتع باستحسان الله ومباركته؛ فالتَّبرير أكثر من مجرد مغفرةِ الخطايا، إذ يُحسب الشخصُ المُبرَّر كَمَنْ حفظ كل قوانين الله تمامًا.

وتُعتبر قوانين الله المقاييس الوحيدة التي بها نُبرَّرُ أو نُدان؛ لذلك فلا بد أن نقول إن التَّبرير ليس مُمكنًا لنا، لأننا جميعًا قد تعدَّيْنا تلك القوانين. فكيف نتبرَّر إذًا؟ هذا هو موضوع هذا الكتاب. إن إنجيل يسوع المسيح قادر على حَلِّ هذه المشكلة.

يصف الكتاب المقدس طريقتيْن للتبرير

الطريقة الأولى: عاش أبوانا الأولان آدم وحواء فترة مِنْ حياتِهما دون ارتكاب أخطاء، إذ خُلقا قدِّيسَيْن وسعيدَيْن تَخلو حياتهما مِنْ أيَّةِ خطيّةٍ، وقد أعلن لهما الله بأنه إنْ حفظا أوامره، يمكنهما الاستمرار في حالة القداسة والسعادة، مُتبرِّريْن بطاعتهما. وقال الله لهما إن العصيان سيفقدهما الرضا الإلهي، ويموتا.

فالطريقة الأولى للتَّبرير كانت بطاعة أوامر الله، لكن هذه الطريقة كانت مُناسبة فقط لهؤلاءِ الذين كانوا مقدَّسِين وبلا خطية. وبمجرد سقوط آدم وحواء في معصيةِ الله، أصبحت طريقة التَّبرير هذه غير مُجدِية لهما، فقوانين الله التي كسراها بعصيانِهما، يجب أن تدينهما ككاسري وصايا الله، ولا يمكنها تبريرهما، أي لا تستطيع وصفهما كقديسيْن بلا خطية.

الطريقة الثانية: منذ أنْ سقط آدم وحواء في الخطيةِ بعصيانهما، كانت هناك ضرورة لإمكانية التبرير للخُطاة، وقد أعلن الله الطريقة الثانية للتَّبريرِ لآدم وحواء، حِين استدعاهما ليظهرا أمامه (تك3:14-16). الكلمات التي قالها الله لهما تعني أنه هو المسؤول عن تبريرهما، إذ سيُرسل إلى الأرضِ مُخلِّصًا، مولودًا من امرأة، لينقذ الخُطاة مِنْ قبضةِ الشيطان.

وقد وُضع الإعلان الأول لهدفِ الله الرحيم، في مُصطلحاتٍ عامةٍ، إلا أنه اشتمل على نفس الحقائق المُعلَنة بصورة كاملة في العهد الجديد. كانت هذه هي طريقة التَّبرير بنعمةِ الله، فكان لا بد أن يأتي المُخلِّص الإلهي يسوع المسيح، الذي سيتألم عن الخُطاة، فلقد تَعهد الله بسلطانِهِ أمْرَ تبرير الخُطاة العاجزين، وذلك بعطية النعمة المخلِّصة.

ولأنَّ الله قد وعدَ بِمُخلِّص؛ فإنَّ آدم وحواء، ومن تلاهما مِنْ مؤمني العهد القديم، كانت تتجاذبهم مشاعر مُختلطة، فمن ناحية كانوا يخافون الله بسبب عصيانهم، ومن الناحية الأخرى كان هناك رجاء في قلوبِهم في وعدِ الله بخلاصِهم، وقد تَمَّ التعبير عن هذه المشاعر بطقسِ تقديم الذبائح الحيوانية للهِ[1].

لقد كان ذبحُ الحيوان وسفك دمه يُعبِّران عَنْ حقيقة غضبِ الله في الدينونةِ؛ فالحيوان كان بريئا، لكنه كان يُقتَل كبديلٍ عن الخاطئ، الأمرُ الذي عبَّر عن حقيقة المُخلِّص الإلهي، الذي سيُقدَّم عن الخطاة.

هذه الذبائح التي قُدمت في العهد القديم، وَصفَت بطريقة رمزيّةٍ عمل يسوع المسيح "... حَمَل اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ" (يو1:29). وعَنْ طريقِ تقديم ذبيحة مثل هذه، والإيمان بما تعنيه، فقد شُهِدَ لهابيل بأنّه بارٌّ (عب11:4).

واضح أن كل المؤمنين بطريق الله للخلاصِ بموت بديلٍ بريء عنهم - في ذلك الوقت كما الآن - هم مبرَّرون.

كما أن غير المؤمنين الذين يرفضون طريق الله للخلاص، لا بد أن يبقوا تحت دينونة الله بسببِ خطيتهم، ففي الطوفانِ الذي أَهلك كل الناس ما عدا نوح وأسرته (تك23:7)، أعلن الله غضبه على الخُطاةِ الذين تَمسَّكوا بعدمِ إيمانهم، كما أعلن تبريره لأولئك المؤمنين الطائعين بالفُلْكِ.

بعد الطوفان ازداد وضوح الإعلان عن أسلوب التَّبرير، الذي يَمنحه الله برحمته عن طريق المُخلِّص. وأوضحُ حالة للتبرير بالنعمة في عصر الآباء كانت حالة إبراهيم، وقد استُخدمت هذه الحالة كثيرًا في كتابات العهد الجديد كمثالٍ لهذه الطريقة الثانية للتَّبرير (يو56:8 ؛ رو3:4 ؛ غل6:3 ؛ يع23:2).

ويُعَدُّ إعطاء النَّاموس لموسى على جبلِ سيناء، هو العصر العظيم التالي في تاريخ التَّبرير، في العهد القديم. لقد كان هدف هذا الناموس مُزدوجًا: الأول لحُكمِ حياة الأُمَّة اليهودية، والثاني ليُعلِّمهم أنْ يكونوا مُستعدين للمُخلِّص الموعود الذي "فيه تَتبارَكُ جميع أمم الأرض"، كما فَهِم إبراهيم (تك 18:22).

وبحسب الهدف الأول للناموس، كان الخير المادِّي للأمة، يعتمد على مدى طاعتهم له؛ فقد كان يتحقق لهم الرخاء بناء على أعمالهم، ولذا فالناموس يمكن اعتباره "عهد أعمال" الأمة.

ومن حيث الخلاص الأبدي للمؤمنين، فقد كان هدف الناموس الثاني، هو توبيخ الخطية؛ وبذلك يهذِّب اليهود استعدادًا للمُخلِّص الآتي. وقد استخدم الرسول بُولس

الناموس بهذ الأسلوب، ليُثبِت استحالة تبرير أي إنسان بِحفظِهِ للناموس، الذي لا يُمكن حفظه تمامًا من مخلوقات خاطئة.

إذًا لَمْ ينقُض الناموس طريقة التَّبرير التي قدم بها الله مخلِّصًا، بل بالأحرى وُضع الناموس ليساهم بالتعريف بهذه الطريقة للتبرير. إنَّ كل الطقوس التي وضعها الله، كانت رموزًا لها معناها من الحقائق الروحيَّة. كذلك فإنَّ كل طقسٍ كنيسة العهد القديم، كان يُصوِّر جوانب مُختلفة لعملِ المسيح المخَلِّص. إذن فكُل إسرائيلي كان يتطلع للمستقبل، كان يتبرر بالنعمة بالإيمان بالمسيح، تماما كالمؤمن المسيحي في عصر العهد الجديد الذي يتطلع إلى الوراءِ.

خلال زمن الناموس، أرسل الله أنبياءه لليهودِ على التوالي، كي يُفسِّروا المعنى القومي والروحي لناموسِه، ففي أيامِ داود وصموئيل، زادت المعرفة المُختصة بالمسيَّا الآتي زيادة هائلة، وبعد ذلِك وَصَف إشعياء وأنبياء آخرون المسيَّا الآتي وصفًا مفصَّلاً. هذه الحقائق كانت أساس إيمان المؤمنين الحقيقيين من الكنيسةِ اليهودية.

في الأصحاحاتِ الافتتاحية لكل من الإنجيل بحسب متى ولوقا، نجد إشارة لعدة مؤمنين حقيقيين، فتَّشوا عن التَّبرير، بتحقيق الله لوعده، الذي سبقَ فوعد به بإرسال مُخلِّص، فقد بحث زكريا وأليصابات وسمعان الشيخ وحنَّة وآخرون عن الفداء في أورشليم (لو1 ؛ لو2).

يُعتبر العهد القديم سجلاً لمعرفةِ الحياة الروحية، الأمرُ الذي لا يضارعه أيٌّ من كُتَّاب الفلاسفة القُدامى. والعهد القديم مليء بحقيقةِ الإنجيل، بأنَّ الله يمنحُ التَّبرير مجانًا للخُطاةِ الذين يؤمنون به، وبهذا المعنى نفهم أن هذه البشارة مكَّنت الرُّسل أن يؤسِّسوا الكثير من تعاليمهم عن هذه الطريقة للتَّبرير بناءً على اختبارات

إبراهيم وداود (رومية أصحاح 4) وغيرهم من مؤمني العهد القديم (عبرانيين 11).

الملاحظات:

1- يبدو من المرجح جدا أن الذبائح الحيوانية كانت فريضة رسمها الله، وليست من اختراع إنسان، فقد قدم هابيل "بالإيمان" (عب 4:11) أي مصدِّقا، فلا بد أنه كان لديه سلطان إلهي للقيام بهذا العمل. إن الإيمان يستلزم شيئا يؤمَن به: في هذه الحالة، تعليمات إلهية لتقديم الذبائح.

المحاضرة الثانية

التَّبرير كما هو في كتب العهد الجديد

نوجِّه انتباهنا الآن لما كان شائعا عن عقيدةِ التَّبرير بَيْنَ الأُمم واليهود، عندما قُدِّم لهم الإنجيل أولاً. لقد رأينا أنه مِنْ بدايةِ تاريخ التعليم الإلهي كان تبرير الخُطاة - متضمنا الوعد بمُخلِّصٍ آتٍ، وتعليمات تقديم الذبائح وما إلى ذلك - معروفًا للكل من آدم حتى إبراهيم. إذن لم يكن هناك تقسيم في العالمِ بَيْنَ الأُممِ واليهودِ، لكن الموقف بعد إبراهيم كان مُختلفًا.

1- بَيْنَ الأُممِ

لَقَدْ نُسِيَت معرفة هذه الحقيقة أو أُفسدت، من أولئك الذين لم يستقبِلوا إعلانات أُخرى مِنَ اللهِ، مِثل تلك التي أُعطيت لإبراهيم واليهود. لقد احتفظ العالم الأُممي ببعض الأفكارِ الدينية البدائية للعبادة، فاستمروا في تقديمِ الذبائح الحيوانية، لكن دون معرفة بحقيقةِ الإنجيل، وبالتالي تطَورت هذه المُعتقدات إلى خُرافاتٍ وثنيةٍ. ومع ذلك فإنَّ الشوق المُحزن للعبادةِ الوثنيةِ كان مُلِفتًا للنظر. إنه يوضح حقيقة أن الناس أحسوا بالحاجة لأن يكونوا مقبولين لدى قوة عُليا، وإن كانت معرفتهم باللهِ وبالخطية وبالحاجة إلى الخلاص ناقصة. أمَّا الأُمميون المُتعلمون، فكانوا يسخرون من الخُرافات، وقد لجأوا للفلسفةِ ليجدوا إجابات على أسئلتهم الدينية. وفي الضوء الخافت لإعلان الله في الطبيعة، حاول الأُمميُّون أن يصارعوا مع مشاكلهم، ولم تكن لهم عقيدة مُحدَّدة عن التَّبرير. أحيانا كانوا يجادلون بأن البشر

أفاضل يتمتعون بالفضيلةِ بشكلٍ كافٍ، وأنه مِن الخطأ أنْ نُشير إليهم كخُطاةٍ عاجزين يحتاجونَ إلى التَّبرير.

2- بَيْنَ اليهودِ

لَمْ تُفقد حقيقة التَّبرير بنعمةِ الله بالإيمان نهائيا، مع أنها قَدْ عُتِّم عليها بالتعليم الخاطئ. وقد وَصف الرسول بُولس قادة اليهود قائلاً: "لأَنَّهُمْ إِذْ كَانُوا يَجْهَلُونَ بِرَّ اللهِ وَيَطْلُبُونَ أَنْ يُثْبِتُوا بِرَّ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يُخْضَعُوا لِبِرِّ اللهِ" (رو10:3). فكان خطأ العديد مِنَ اليهودِ يَكمُن في البرِّ الذاتي، إذ اعتقدوا أنه بإمكان الناس أنْ ينالوا غُفرانًا لخطاياهم، عن طريقِ مجهوداتهم، وأنهم بالأعمال الصالحة (الصلوات والصدقات والعطايا والطقوس الدينية، والإيمان بالناموس) يمكنهم أن يكونوا أهلاً للحياةِ الأبدية.[1] هذا التعليم أوضح نقصًا في معرفتهم لحقيقةِ طبيعة الخطية، وتجاهلاً لما صَنعَهُ يسوع المسيح ليأتي بالخلاص للخُطاةِ. من ثَمَّ تساوى الأُمم واليهود في اعتقادهم بأنَّ أعمالهم التي عملوها أو التي قد يعملوها، يمكن أن تبرِّرهم، الأمر الذي جعلهم يضعون ثقتهم في المراعاة الخارجيةِ للطقوسِ الدينية لإرضاءِ الله. لَقَدْ كُرِز بإنجيل الخلاص بنعمة الله، للناس الذين آمنوا بالتعاليم الخاطئة التي لليهود والأمم، وحينما نُقدِّر هذه الحقيقة، يُمكننا فهم أجزاء كثيرة من البشائر والرسائل.

وفي تفسير للمعنى الروحي لناموس الله، ركَّز الرب يسوع على مطلب الطاعة الداخلية بالقلب والعقل، وقد شدَّد على حقيقةِ العِقاب الأبدي للخطية وعلى ضرورة الميلاد الثاني الداخلي. ونجده دائما يستخدمُ الناموس من حيث كونه عهدًا قوميًّا، ليُثيرَ إحساسًا بجُرم الخطية: "اِفْعَلْ هَذَا فَتَحْيَا" (لو10:28). وقد سعَى الرب ليُعدَّ الطريق لإنجيلِ التَّبرير بالإيمان وحده (يو3:16).

وقد تعامل الرُّسل مع أخطاءِ الأُمم واليهود، بنفس الأسلوب؛ فقد أوضح بُولس مِرارًا أنَّ الأُمم واليهود خُطاةٌ عاجزون تحت غضب الله المقدس، وأنهم لا يقدرون بأعمالهم أنْ ينالوا القَبول أمام الله؛ ولهذا فقد برهن بُولس على الحاجة المُلِحة لطريقةِ تبرير أُخرى غير تلك التي يمكن أن يخترعها البشر، وكان الطريق مُعَدًّا "البرِّ الله بالإيمان" وحده (رو3:22).

إنه من المهم أنْ نُدرك أنَّ أخطاءَ الأُمم واليهود ما زالت هي الأخطاءُ التي على الكنيسة أن تُحاربها، وذلك بتعليم العقيدة الكِتابية للتبريرِ. هذه الأخطاء شائعة في كل الدياناتِ الأُخرى، فَكُلُّها تُعلِّم بنوعٍ مِن الاكتفاء الذاتي البشري، وتعترض على الاتكالِ الكُلي على نِعمةِ الله للتبرير. وفي حالةِ اليهود، هناك خطأ إضافيّ وهو اتكالهم على امتيازِهمْ الخاص كشعبِ الله المُختار. كل هذه الأخطاء الثلاثة يُمكن أنْ توجد بيْنَ العديد مِنَ الأتباع الإسميِّين للمسيحية اليوم.

3- بالإضافةِ إلى الأخطاءِ والضلالاتِ، التي كانت شائعة عندما كُرز بإنجيل العهد الجديد أولاً، ظهرت في الكنيسة الأُولى أسئلةٌ أُخَر عن التَّبرير. نشأت هذه الأسئلة تحت تأثير اليهودية والفلسفة اليونانية، فمِن التأثيرِ اليهودي ظهرت الأسئلة التالية:

أ- هل على المؤمنين مِن أصلٍ يهودي أنْ يستمروا في مُمَارسةِ الطقوس اليهودية؟

ب- هل على الأمميِّين أنْ يتهوَّدوا أولاً ليكونوا مسيحيين؟

ج- هل الإيمان بالمسيحِ كافٍ للصفح عن الخُطاة وقبولهم من الله، بِدُون طاعة الناموس الأخلاقيّ أو الطقسي كسببٍ للتَّبرير؟ (أعمال 15).

إنَّ هدف الرسالة إلى العبرانيِّين هو إقناع المؤمنين اليهود أنَّهمْ كمسيحيِّين يتمتعون الآن بالحقيقةِ التي احتوت اليهودية على رموزِها فقط. إنَّ الحدث المُسجَّل في سفرِ الأعمال عَنْ حلولِ الروح القدس بِملئهِ على المؤمنين الأُمميِّين، أوضح أن الشعائر اليهودية لم تكن ضرورية للاختبار المسيحي.

وتُركِّز رسالتا رومية وغلاطيَّة على أنَّ الخلاص بالإيمان بالمسيحِ وحده، ولا يحتاج الخلاص إلى أيَّةِ أعمالٍ صالحةٍ بشرية ليكون فعالاً. إنَّ دراسة الكيفية التي تَعامل بها الرسل مع الأسئلةِ المُثارة في أيامهم، تُعطينا معلومات كثيرة عن كيفية فهمِهمْ لعقيدةِ التَّبرير.

أما عن التأثير الفلسفي اليوناني، فقد ظهرت بِدعةٌ تَعتبر أنَّ كُلَّ ما هو مادِّي لا بد أن يكون شرًّا، فأجسادنا لا بد أن تكون شريرة بالوراثة، الأمر الذي أدَّى إلى إنكارِ الطبيعة المادِّية الحقيقية لجَسدِ الرب، وبالتالي فالمسيح الذي تألَّم وسُفك دمه لا يمكن أن يكون بَديلاً حقيقيا عَن الخُطاةِ في رأيهم، وفي هذه الحالة لَمْ يعُد التَّبرير مُمكنًا بالإيمانِ بالمسيحِ كمُخلِّصٍ.

وفي مواجهة هذه الضلالة، أكد الرسول يوحنا بكل جزم بالقول: "كُلُّ رُوحٍ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ المسيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَهُوَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ رُوحٍ لاَ يَعْتَرِفُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْجَسَدِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ" (1يو4:2-3).

ولا يزال السبب الحقيقي للبِدَعِ التي تحاول أن تفسد الحق المسيحي ينشأ من الفلسفةِ والغرور الباطل (كو2:8).

الملاحظات:

1-المسيحيون الإسميُّون يفترضون أحيانا أن الأعمال الصالحة يمكن أن تعادل خطاياهم فتجعلهم بلا خطية، وبذلك لا لزوم لمغفرة الخطية. أما اليهود ذوي البر الذاتي فلا يجرؤون على التفكير بأن الخطية يمكن أن تفلت من العقاب. لقد عرفوا أن خطاياهم يجب أن يُدفع ثمنها بالكامل، واعتقدوا بالتالي أن الحياة الأبدية يمكن أن نعمل من أجلها. كانت ضلالتهم افتراض أن الخطاة يمكنهم أن يدفعوا ثمنًا عن خطاياهم، وعندئذ يعيشون بلا خطية ليفوزوا بالحياة الأبدية.

المحاضرة الثالثة

التَّبرير بحسب تعاليمِ آباء الكنيسة حتى 1200م

إنَّ كِتابات آباء الكنيسة ليست وحيًا مقدسًا، ولا ننظر إليها ككتاباتٍ لها سُلطان للتعليمِ، لكنها تقدم دليلاً على التعليمِ الذي كان في الكنيسةِ وقتئذ. لدينا سلسلة متصلة مِنَ الكتاباتِ منذ عصرِ الرسل حتى الآن، الأمر الذي يكشف لنا كل تاريخ الفكر المسيحي في موضوع التَّبرير.

والسؤال الذي يُمكن أنْ نطرحه على آباءِ الكنيسة الأوائل هو: هل يُمكن أنْ نَتَتبَّع عقيدة التَّبرير بالنعمة بالإيمان باستحقاقاتِ المسيح، في بعضِ كِتاباتِ الحِقبةِ الأُولى مِن تاريخِ الكنيسة؟ لو كان الأمر كذلك يكون لدينا برهان وافٍ بأن عقيدة التبرير، بالنعمةِ، لم تكن مِن اختراعِ لوثر، كما يقول البعض! فإن كانت معروفة لأيٍّ من آباء الكنيسة الأوائل، فهذا يَعني بالتأكيدِ أنها كانت معروفة قبل عصر الإصلاح.

- **أكليمندس الرُّوماني:** (ربما المذكور في فيليبي 3:4.) قال في رسالتِهِ للكورنثيين: "نحن أيضًا المدعوين بإرادةِ الله في المسيحِ يسوع، لَم نُبرَّر بأنفسنا، ولا عَنْ طريق حكمتنا أو فهمنا أو تقوانا، أو أعمالنا التي عملناها في قَداسةِ قلبٍ، بل تبرَّرنا بالإيمانِ...." (رسالة إلى الكورنثيين).
- **أغناطيوس:** (أحدُ تلاميذ الرسول يُوحنا.) كتب يقول: "إنَّ صليب المسيح، وموته وقيامته والإيمان به، هي وثائقي النقية[1] my unpolluted muniments؛ وبهذه وصلواتكم أنا راغب أن أتبرر." (رسالة إلى الفيلادلفيين.)

- **بوليكاربوس:** (مات عام 115م.) وكان أيضًا من تلاميذ الرسول يُوحنا. كَتبَ يقول: "أنا أعلم أنكم مخلَّصون بالنعمةِ، ليس من أعمال، بل بواسطة إرادةِ الله يسوع المسيح". (رسالة إلى الفيلبيين.)
- **جَستِن مارتِر:** (مات عام 165م) كَتبَ يقول: "ليس بدمِ ماعز أو حملان أو برمادِ عِجلة تَمَّ تطهير الخطايا[2]، بَلْ بالإيمانِ بدمِ المسيح وبموتِهِ. المسيح الذي مات لهذا الأمر بالذات." (حوار مع ترايفا.)

وفي رسالة كُتبت حوالي عام 150م كتبها جستن مارتِر لشخصٍ يُدعَى ديوجنيتوس، الذي يبدو أنه كان يستفسر عن المسيحيةِ، نجد العبارات التالية: "لقد قدَّم الله ابنه عنا... لأنه ما الذي يمكن أن يستر خطايانا إلا برُّه؟ وبمن كان يمكن لعصاة وأشرار مثلنا أنْ يتبرَّروا، إلا بابنِ الله وحده؟". يا لها مِنْ فائدةٍ غير مُتوقعة! أن تعدِّيات الكثيرين يجب أن تُخفى في شخصٍ واحد بارّ، وأن برَّ الواحد سيُبرِّر عُصاةً كثيرين.

وفي الفترةِ ابتداء من حُكمِ الإمبراطور قُسطنطين، (الذي مات عام 337م)، حين كانت المسيحية هي الديانة الرسمية - الفترة التي تميزت عن الإيمان المُضطَهَد - ظهرت عِدَّة هرطقات تُنكِر عِدَّة عقائد مسيحية أساسية. والأمر المحتوم، أن ضلالة لحقيقة مسيحية شملت ضلالات لحقائقَ إيمانية أُخَر عَنْ الخطيةِ. على سبيل المثال فإن بعض الآراء الخاطئة حجبت عن البعض فهمَهم وحاجتهم لمُخلِّصٍ، علاوة على بعض هرطقات أُخر تتعلق بالثالوث، وتَجسُّد المسيح وعدم إمكانية الخاطئ الضال أن يقوم بأعمال روحية. كل هذه الهرطقات، أَضعفت الفهم الكتابيَّ للتَّبريرِ.

لمقاومة هذه الهرطقات، وإعادة التأكيد على طبيعةِ الإنسان الخاطئة الضعيفة، والحاجة المُلِحَّة للخلاصِ بالنعمةِ وللكفارةِ الحقيقية التي قدَّمها المسيح، فإن بعض الكنائس الأمينة وضعت أُسُسا آمنة لعقيدة التَّبريرِ بالنعمةِ بالإيمانِ بالمسيحِ.

- **إيرينايوس:** (أحد تلاميذ بُولِيكاربوس. مات في أوائل القرن الثالث.) كتب يقول: "مِن خلالِ طاعة إنسان وُلد أولا من العذراءِ، لا بد أن يتبرَّر الكثيرون ويحصلوا على الخلاص".
- **كبريانوس:** (أُسقف كنيسة شمال أفريقيا. مات سنة 258م.) كتب يقول: "إن كان إبراهيم قد آمن باللهِ وحُسِب له برًّا، إذن فكُل من يُؤمن باللهِ ويحيا بالإيمان، يُحسب مُبرَّرًا".
- **أثناسيوس:** (أُسقف الإسكندرية لمدةِ 46 عامًا. مات عام 373م.) كتب يقول: "ليس عن طريقِ المجهودات البشريَّة يُمكن أن يتبرر الإنسان، بَلْ بالإيمان، كما تبرر إبراهيم".
- **باسيل:** (أُسقف كبدوكية. مات عام 379م.) كان كاتبًا مشهورًا بغزارة كتاباته. ترك لنا هذه الكلمات: "هذا هو التمجيد الحقيقي والكامل للهِ، عندما نرى أن الإنسان الذي لا يُرفع شأنه اعتمادًا على برِّهِ الشخصي، بل عرف أنه مُحتاجٌ إلى برٍّ حقيقي، ويتبرر بالإيمانِ بالمسيحِ فقط".
- **أمبروس:** (أُسقف ميلان، واشتهر كواعظٍ قديرٍ. مات عام 397م.) ترك لنا هذه الكلمات: إن الإنسان الخاطئ، أي الأممي، الذي يؤمن بالمسيح، إيمانه يُحسب له برًّا، "بدون أعمال الناموس، كما حُسب لإبراهيم" .
- **أوريجانوس:** (أحد أعظم المُفكرين والمُعلمين والمُؤلِّفين المسيحيِّين. مات عام 253م.) كتب ما يلي: "بالإيمانِ وبدون أعمال الناموس، تبرَّر اللص

المصلوب، لأن الرب لم يسأل عن أعمالٍ سبق وارتكبها، ولا عمَّا يجب على اللص القيام به بعد الإيمان، بل دعاه الرب لصُحبته مُبرِّرًا إيَّاهُ باعترافِهِ فقط".

- **چيروم:** (أعظم مُترجمي الكِتاب المقدس إلى اللُّغةِ اللاتينية. مات عام 420م.) كتبَ يقول: "حين يتجدد إنسان خاطئ، فإن الله يُبرِّره بالإيمانِ فقط، وليس بناء على أعمال صالحة لا يمتلكها".
- **كريزوستوم (يوحنا فم الذهب):** (قد يكون أعظم واعظ بَيْنَ كل آباء الكنيسة. قضى سنوات كثيرة في القُسطنطينية. مات عام 407م.) من كتاباته نقرأ: "ماذا يفعل الله إذن؟ لقد جعل - حسب قول بولس - إنسانا بارًّا، خاطئا[3]، جعل الذي لم يعرف خطية خطيةً لأجلنا ليُبرِّرَ الخُطاة. إنه برُّ الله عندما تبَرَّرنا، لا بأعمالنا، بل بالنعمة ماحيًا كُل خطية ارتُكبت".
- **أغسطينوس:** (أُسقف هيبو، بالقربِ مِنْ قرطاجة، وأحد أعظم مفسِّري لاهوت الخلاصِ بنعمة الله فقط. مات عام 430م.)، كتب ما يلي: "لقد أُعطيت لكَ النعمة لا على سبيل أجرة، وتُسمَّى نعمة، لأنها تُعطَى مجانًا، فلم تَشترِ ما أخذتَه، باستحقاق سابق. إذن فالخاطئ يُعطَى هذه النعمة أولاً ثُم تُغفر له خطاياه. والأعمال الصالحة تَتبع مِن شخصٍ مُبرَّر، وَلا تكون سببًا لكي يتبرر. والأعمال الصالحة التي تتبع التبرير تُظهِر النعمةَ التي قبِلها".
- **أنسِلم الذي مِنْ كانتربري:** (مات عام 1109.) كان لاهوتيًّا عظيمًا. قد تكون شهرته بسبب دراسته لكفارة المسيح عن الخطيةِ، إذ كَتبَ يقول: "هل تُؤمن بأنك لا يمكن أَن تخلُص إلاَّ بموت المسيح؟ أسرِعْ إذن واطرح ثقتكَ في موته فقط. وإنْ قال الله لك: إنكَ خاطئ، قُلْ له: أنا أضع موت ربِّنَا يسوع المسيح بَيْني وبيْن خطيَّتي".

- **برنارد الذي مِنْ كليرفو:** (ويُعدُّ آخر آباء الكنيسة. مات عام 1153م.) كتب ما يلي: "أليس كُلُّ بِرِّنَا يَصير عَدمَ بِرٍّ، ويُصبح عجزًا! ما هو إذًا مصير خطايانا، إن كان بِرُّنا لا يستطيع الدفاع عن نفسِهِ؟ لذا دعونا نسرع بكل اتضاع للرحمة التي يُمكن وحدها أنْ تُخلِّص نُفوسنا، فأيُّ مَنْ كَانَ فِي عطشٍ وجوعٍ للبِرِّ، ليْتَه يؤمن بك يا من تبرِّر الخاطئ، وعندما يَتبرَّر بالإيمانِ وحده، سيحظى بسلامٍ مع اللهِ[4]".

هكذا، فإنَّنا نرى - وبِدُونِ شك - أنَّ عقيدة التَّبرير بالنعمة بالإيمان لم تكن شيئًا استحدثه لوثر وكالفن للكنيسة، فمع أنَّ القرون الأولى من تاريخ الكنيسة شهدت العديد من الهرطقات والمفاهيم الفاسدة، إلاَّ أنه كان هناك أيضًا تيار مُستمر من أعظم الكُتَّاب والمفكرين الذين تمسكوا بالحقِّ الكتابيِّ وعلَّموه.

الملاحظات:

1) معنى Muniments هو، صكوك مِلْكية.
2) الشاهد يُفترض عب 11:10.
3) الشاهد يفترض 2كو 21:5. الواقع أن يوحنا فم الذهب يتخطى المكتوب في الكتاب المقدس بالقول إن المسيح لم يُجعل خاطئا.
4) رئيس الأساقفة Ussher (1581 - 1656) قام بتجميع اقتباسات من ثمان وعشرين من آباء الكنيسة الأوائل، مُبَيِّنًا أنه في كل قرن من القرون الإثني عشر الأولى، كان هناك من تمسكوا بالعقيدة الكتابية للتبرير. (Ussher، Answers to a Jesuit's challenge، pp472 - 505)

المحاضرة الرابعة

التَّبرير كما عُلِّم في عصرِ الإصلاح البروتستانتي

إنَّ إعادة اكتشاف عقيدة التَّبرير كانت السبب في إصلاح القرن السادس عشر. كان الإصلاح رد فعلٍ ضد عقائد زائفة ومُمَارسات فاسدة نشأت في الكنيسة الكاثوليكية الرومانيّة قبل الإصلاح. دعونا الآن نتتبَّع كيفية نشوء هذه الضلالات.

أوَّلاً: كان هناك التعليم الروماني الكاثوليكي بخصوصِ الصفح عن الخطايا، وهو أنَّ كل خطيةٍ (بما في ذلك الخطية الأصلية)[1] تُرتَكب قَبلَ المعمودية، يتم الصفح عنها بالمعموديةِ التي بها يحصل الإنسان على حياةٍ روحيةٍ جديدةٍ، وكل خطية تُرتكب بعد المعمودية يتم الصفح عنها فقط بالاعتراف للكاهنِ، واستيفاء العقوبات[2] والمعاناة الشخصية في المطهرِ[3] (لم يَكُنْ هذا غُفرانًا للخطايا في الواقع، لأنَّ كل الخُطاة لَم يحصلوا على الغُفرانِ المجاني، لكن كان عليهم أن يتحمَّلوا عملية طويلة مِن الألم).

وقد كانت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تُقسِّم الخطية إلى نوعين، **الأوَّل:** خطية مُمِيتة، وهذه يُكفِّر عنها موت المسيح فقط، **والثاني:** خطية غير مُمِيتة، تستوجب إتمام عقوبات يُنزلها الخاطئ بنفسه في هذه الحياة. (لاحظ أنَّ الكِتاب المقدس لم يضع مثلَ هذا التصنِيف بل يَعتبِر كُلَّ خطية مُمِيتة).
بحسب هذه التعاليم فإن التَّبرير يجب أنْ يكون عن طريق مجهودات الخُطاة الذاتية، واستحقاقاتهم الشخصية.

ثانيًا: الإدراك الفِعلي بضخامة الخطية والنقص المستمرَّيْن، برغم المجهودات المَبذُولة لعملِ عقوبات يُنزلها الخاطئ نفسه، أدَّى إلى فكرةِ نقل استحقاقات القديسين إلى البشر الأدنى. فقِيل إن هذا المخزون من استحقاقات القديسين والشهداء - المُتراكمة عَبر السنوات المُختلفة - يُمكن أن تُوزَّعَ بواسطة البابا نفسه أو عن طريقِ وكلاء مفوَّضين منه. صكوك الغفران هذه، كما كانوا يُسمُّونها، يُمكن أنْ تُشترَى بالمالِ، وكان ما يُباع منها يشكِّل مصدر دخلٍ للبابا.

ثالثا: بجانبِ هذه الأخطاء من حيث الاستحقاقِ البَشريِّ، نَمَت فكرة أنَّ القُدَّاس[4]، يُمكن أنْ يُصبح ذبيحة حقيقية لجسد المسيح الحقيقي ودمه عندما يريد الكاهن، فافترضوا أن الخمر والخبز يصبحان جسد المسيح ودمه.

ومهما كانت قيمة الاستحقاقات البشرية فإن استحقاق الاحتفالات المتكررة الخاصة بموت المسيح لا يمكن أن ينضب.

هكذا أصبح قربان المذبح أيضًا مصدرًا للكسبِ المادي، حيث كان القداس يقام (أو يُدفع عنه) ليُوفر استحقاقا لفائدة نفوس الأحياء والأموات.

هناك أربعة اختلافات بَيْنَ تعاليم الكِتاب المقدس، وبالتالي المُصلِحين، وبين تعاليمِ الكنيسة الكاثوليكية الرومانيَّة عن التَّبريرِ:

1- طبيعةُ التَّبرير: كان تعليم الكنيسة الكاثوليكية الرومانيَّة أن المعمودية وسيلة يَنال بها الخاطئ حياةً روحيَّةً جديدةً تُمكِّنه مِنْ تَبريرِ نفسه. أمَّا المُصلِحونَ فعَلَّموا من الكِتابِ المقدس بأنَّ التَّبرير هُوَ الصفح الكامل عن كل الخطايا، بقرارٍ مِنْ نعمةِ الله، الأمر الذي بِهِ يُحسَب الخاطئ بارًّا في الحال.

2- أُسسُ التَّبرير: لقد عَلَّمت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أنَّ الحياة الروحية التي تؤخذ في المعموديّةِ، هي سببُ قَبول الله للخاطئ، أمَّا الكتاب المقدس والمُصلِحونَ فعلَّموا بأنَّ برَّ المسيح الذي يُحسَب للخاطئ، هو الأساسُ الوحيد للتَّبريرِ.

3- طريقةُ التبرير: لقد كان تعليم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أنَّ الخاطئ يتبرَّر حين تُنتِج الحياة الروحيّة الجديدة - التي أخذها في المعموديةِ - أعمالاً صالحة (أي الاعترافات والاشتراك في أسرار الكنيسة، وأعمال التوبة ...الخ). أمَّا المُصلِحون والكتاب المقدس فقد علَّموا بأنَّ التَّبرير بالإيمانِ بالمسيحِ وحده، ومِثل هذا الإيمان الحقيقي سيُنتجُ "ثَمر الرُّوح" في الحياةِ، لكنَّ التَّبرير مُرتبط كِتابيًّا بالإيمان وليس بالأعمال الصالحة التي تَتبع الإيمان.

4- تأثيرُ التَّبرير: كان تعليم الكنيسة الكاثوليكية بأنَّ التَّبرير لا يُمكن تحقيقه تمامًا، لذلك فالحاجة مُلِحَّة لمزيد من أعمال التوبة عن الخطايا التالية، ولا يُمكن لأحدٍ أنْ يَتأكد مِنْ تمام تبريره، إلا بعد أن يصل إلى السماءِ بعد أنْ يحتمل الألم في المطهرِ.

أمَّا الكتاب المقدس والمُصلِحون فقد عَلَّموا بأنَّ التَّبرير يشمل الغُفران المجاني لكل الخطايا وضمان الحياة الأبدية. وقد تحدثوا عن تعليم الكنيسة الرومانية بأنه "إيمان غير أكيد مَليءٌ بالشكوكِ"، وهذا مختلف تماما عن التعليمِ البُروتستانتي عن طبيعة التَّبرير الكامل النهائي بِمُوجبِ عمل نعمة الله الذي لا رجعة فيه.

إن تعليم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أعطى أهمية كبيرة للمجهود البشري في التَّبريرِ وانتقص من غِنى وأعجوبة نِعمة الله، أي أن استحقاقات حياة وموت المسيح لم تعُد كافية؛ فالخاطئ لا بد وأنْ يضيف الاستحقاقات المُفترَضَة بمجهوداته الخاصة، فلا تُوجد ذبيحة واحدة عن الخطيةِ، إذ يجب أنْ تُكرَّر في

القُداسِ بـلا نهايـة. إن مجهـودات الخـاطئ لتبريـر نفسـه يمكـن أنْ تُضـاف إليهـا استحقاقات القِديسين والشهداء، فغُفران الخطية ليس هِبـةً فوريَّـةً من اللهِ، بل شيئًا غيـر يقينـيٍّ يَعتمـد علـى الاعتـراف والالتـزام بالعقوبـاتِ، التـي يضـمنها "كـاهن" بشري. لقد رأى لوثر بحكمته أن المُمَارسة الفاسدة لبيع صكوك الغُفران - الأمر الذي ضايقه جدا - نشأت عن كل هذه الضلالات في العقيدة.

إن الحقيقـة الكتابيـة للتَّبريـر بالإيمـان الـذي يمنحـه الله مجانـا، وتأكيـد خـلاص الخاطئ، سطعت كتيار كهربائي خلال شكوكِ وضلالاتِ القرن السادس عشر، وهـذا الفهـم الجديـد أدى إلـى إصـلاح بعـض الكنـائس وتجديـدها بحسـب نمـوذج العصرِ الرسولي.

الملاحظات:

1) هذا الاصطلاح يعني الجُرم والخطية الموروثة من سقوط آدم، ولأن الكل انحدر منه، فالكل يشترك في خطيته الأصلية.
2) هذا الاصطلاح يعني بعض التأديب المفروض في حياة الخاطئ لكي يُكَفِّر عن الخطايا غير المُمِيتة التي تم الاعتراف بها.
3) المَطْهَر اسم لمكان مزعوم لعذاب مؤقت بعد الموت، حيث يمكن للموتى أن يطهِّروا أرواحهم إكراما للكنيسة.
4) الاسم الذي أُطلق على خدمة الاحتفال بالعشاء الرباني في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

المحاضرة الخامسة

فكر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عن التَّبرير بعد عصر الإصلاح

نشر لوثر وآخرون عام 1530م وثيقة وصفوا فيها كيف فهموا تعليم الكتاب المقدس عن تبريرِ الخُطاة بنعمة الله وحدها، وبالإيمان باستحقاقات المسيح وحده. لكنَّ لاهوتيي الكنيسة الكاثوليكية رفضوا هذه العقيدة معتبرين إياها "بِدعة جديدة"، أي أنها أُدخلت لأول مرَّة! فقد عادوا إلى تعاليمهم السابقة الفاسدة كسبب لرفضها باعتبارها بدعة.

وقد أجاب لوثر وآخرون بأنه ربما تبدو هذه العقيدة جديدة للكثيرين من كنيسة روما، لأنَّ تعاليمهم الخاطئة أَخفت الحقيقة التي تَمسَّك بها الرُّسل وآباء الكنيسة الأولى (انظر المحاضرة الثالثة).

وفي غضون سنوات قليلة حاول إيرازموس وآخرون أن يعملوا مصالحة بين اعتقاد لاهوتيِّي البروتستانت ولاهوتيِّي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والأمر المُثير للدهشة أنَّ اللاهوتيين الكاثوليك وافقوا على أنَّ التَّبرير يَتمُّ بالإيمان "باستحقاقات يسوع المسيح وحده". غير أن قِيمة هذا التعريف تعتمد على معنى كلمة "إيمان": فبالنسبةِ للبُروتستانت، فُهِم الإيمان على أنه العمل البسيط للاعتماد الكامل للخاطئ على المسيح، كالرجاء الوحيد لتبريرِ الخُطاة، أمَّا بالنسبةِ للاهوتيِّين الكاثوليك فإنَّ الإيمان استُخدم ليُعَبِّرَ عن تأثيرِ الروح القدس في المؤمنين الذي يُنتِج بِرًّا داخلهم، وبالتالي يجعلهم مقبولين لدى الله:

"يتبرَّر الخطاة بواسطة ... الإيمان الذي هو تحريك من الروح القدس الذي بـه ... ينسكب الحب بفيض في القلب ويبدؤون في استيفاء الناموس".

الواقع أن الإيمـان الحقيقـي فـي قلـبِ الإنسـان سيتبعه نموٌّ فـي القداسـة، فـلا يعتمد تبرير الإنسان على ذلك النمو، بل ينشأ عن المسيح وحده الذي يتَّحد بـه الإنسـان بالإيمــان. لهـذا بــاءت مُحاولــة التوافـق - بَـيْنَ وجهتــي النظــر البُروتسـتانتية والكاثوليكية عن التبرير - بالفشلِ، حيث أنهما مختلفتـان تمامـا، فـالنظرة الأُولـى تعتمد علـى عمل المسيح التـام عن الخُطـاة، أمَّـا الثانيـة فتعتمد علـى عمل الـروح القدس المستمر في الخُطاة.

لقد تَبَنَّت الكنيسة الكاثوليكية الرُّومانية سياسة مزدوجة ضد تعـاليم الإصـلاح عن التَّبرير، استمرت لفترةٍ طويلةٍ مِنَ الزمن، فقال البعض إنها بدعة، وجادل البعض الآخر بأنها حقٌّ كِتابيّ، حيث أنَّ التَّبرير الذي يُبرِّر، يُوجِدُه الله في المؤمن.

وبالرغم مِن المُحـاولات العديدة لتوافُق وجهتَـيْ نظـر البُروتستانت (المصلِحين) والكنيسة الكاثوليكية[1] عن التَّبرير، إلاَّ أنَّه لَمْ يقدر أحد أن يوفِّق بينهمـا بـإخلاص، حتى من بين الفاهمين لوجهتَي النظر فَهْمًا جيدًا.

إننا لا نُنكر أنَّ أعضاء الكنيسة الكاثوليكية الرومانية يمكن أن يتبرروا ويصبحوا مقبولين من الله، لكننا نُنكر أنَّ الخُطاة يُمكنُ أنْ يُبرَّروا بِبرِّهمْ الذاتي. إننـا نـرفض تعـاليم الكنيسـة الكاثوليكيـة الرومانيـة عَـنْ التَّبريـر ونعتبرهـا غيـر كتابيـة، وكـل المؤمنين الحقيقيِّين في الكنيسةِ الكاثوليكية متبرِّرون، ليس بحسب تعاليم الكنيسة بل بالثقة في استحقاقات المسيح فقط، الأمر الذي منحه الله لهم بِغِنًى.
كَتبَ لوثر: "إذا كان بأعمالِ الناموس (ناموس الله) لا يَتبرَّر جَسد، فبالأولى جدا لا يَتبرَّر أَحدٌ بقانون بِنِدِكْت، أو فرانسيس أو أغسطينوس، لكن البعض إذ وجدوا

أنه ليس فيهم صلاحًا ليُسكِت غضب الله، هرعوا لموتِ وآلام المسيح، وخلصوا بهذه البساطة".

ملحوظات:

1) وكان هناك الكثير منذ عام 1867 عندما نُشرت محاضرات د. بيوكانان لأول مرة.

المحاضرة السادسة

آراءُ بُروتستانتيَّة متعدِّدة عن التَّبرير بعد عصر الإصلاح

إنَّ الاتفاق بَيْنَ لاهوتيِّي الإصلاح على موضوع التَّبرير كان ملحوظا، فقد اختفى الحق الكِتابي طويلا بسببِ فساد كنيسة "العصور المُظلمة"، وكان الأدب اللاهوتي المُتاح حينئذ خاطئا. حتى احتفالات الكنيسة ومُمَارساتها قاومت حقيقة التَّبرير بالإيمان بالمسيح وحده. كل المُصلِحين نشأوا على هذه التقاليد الكنسية، وبرغم اختلافهم عن بعضهم في بعض الموضوعات، إلا أنهم اتفقوا على فَهْمِ هذا الحق الكتابي، فكل كتاباتهم وعِظاتِهم وأصول الإيمان التي وضعوها في تفسيراتِهم، اتفقت على هذه الحقيقة. وحقيقة هجوم كثير من لاهوتيِّي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على عقيدة التَّبرير بالإيمانِ فقط، ، تُظهِر أن المصلِحين اعتبروها أكثر الحقائق التي خرجت للنور في عصر الإصلاح.

وبعد سنوات لاحقة أَفسحت هذه الوحدة المشهودة في الإيمان - بهذا الحق الكِتابي - المجال أمام تنوُّع الآراء، حتى بَيْنَ البُروتستانت أنفسهم، فواحد مِن هذه الآراء نادى بأن البرَّ الذي بِهِ يُبرَّر الخُطاة، هو بِرُّ الله الذي وُضِعَ في قُلوبِ المؤمنين عن طريقِ حياة المسيح فيهم.

رأيٌ آخر يقول إنَّ التوبة عن الخطية والطاعة الجديدة لله والتي يُنشئها الإيمان الحقيقي للمؤمنين، هي أسبابُ تبريرهم.

ومن الآراء الأكثر خطرا، تِلك التي ظهرت بين البُروتستانت الذين تبنَّوْا لاهوت اللاناموسية (نبذ الناموس زعما بأن النعمة تُبطِله)، وأولئك الذين اتَّبعوا مذهب الصوسنية (بدعة تُنكِر لاهوت المسيح وكفارته).

لقد نادى أصحابُ الرأي الأول بأنَّ استحقاقات المسيح التي أُعطيت للمؤمنين، صيَّرتهمْ أبرارًا بصفة شخصية، وأن المؤمنين صاروا مُتَّحدين بالمسيحِ، كما لو لَمْ يَكُنْ هناك أي فرق بين المسيحِ وبينهم، وأن تبرير المؤمنين حدث في الأزل، أو عند موتِ المسيح، ولا علاقة لها بلحظة إيمان الخاطئ، وأن الإحساس بالخطية أو الصلاة طلبًا للغُفران، لا تُعتبر جُزءًا من اختبارِ المؤمن الحقيقي.

أما رأي الصوسنيِّين فهو أنَّ الله يُبرِّر هؤلاء الخُطاة برحمته، وهُم بِدَوْرِهم يَتوبُونَ ويُصلِحون حياتهم. وقد بدأ الصوسنيُّون بالاعتقادِ بأن الخطية كانت مجرد اضطراب بشري وليست جريمة في حقِّ الله تشكل جُرما وموتًا. فالتَّبرير - إذن - هو اعتراف رحمة الله بمجهودات الخاطئ الشخصية لإصلاح ذاته.

وثَمَّة مُحاولة بُذِلت للوفاق بين رأي الصوسينيِّين وتعاليمِ الإصلاح، بأن التَّبرير مؤسَّس على استحقاقاتِ المسيح فقط، وقد تَمَّ الاتفاق على أن الله يمكن أنْ يُبرِّر الخُطاة الذين أصلحوا أنفسهم بالتوبةِ وإصلاح الحياة. غير أنه افتُرِض أن الله ساعد الخُطاة ليقوموا بإصلاح أنفسهم عن طريقِ النموذج الأخلاقي السامي لحياةِ المسيح وموته. بهذا المعنى يُمكن القول بأن تبريرهم مُسْتَمَدٌّ مِن المسيحِ.

علاوة على ما سبق هناك رأي آخر افترض أن كل البشر يملكون نورًا إلهيًّا داخليًّا، كجزء مِنْ طبيعتِهم البشرية، وحينما يُزرع هذا النور الداخلي الإلهي وتُتَّبَع قيادته، يتصوَّر المسيح في الداخل، ويُعَدُّ هذا الحضور المُقَدس أساسًا لتبريرِ ذلك الشخص.

رأي آخر افترض أن المسيح أرْضَى بموته مطالب العدل، لكل الجنسِ البشري؛ فخلاص أي واحد أصبح مُمكنًا لو كانت هناك استجابة صحيحة من التوبة والإيمان وثبات ذلك الشخص.

كُل هذه الآراء المُتعددة تشترك في عامل واحدٍ، يفصلها عن العقيدةِ الصحيحة، التي أُعِيدَ اكتشافها في عصر الإصلاح، فكلها تفترض أن التَّبرير - والقبول في نظر الله - يَعتمد على تجديدٍ روحي داخل الخُطاةِ وليس على استحقاقاتِ حياة وموت المسيح عن الخُطاة، على خلاف ما تُؤكِّده العقيدة الكِتابية.

قد يَبدو مُوجِعًا، أنْ تَظهر كل هذه الآراء المُتنوعة حولَ حَقٍّ كِتابيٍّ واحد، وقد افترض لوثر إمكانية ظهور مثل هذه الأخطاء، ففي قلبِ كل إنسانٍ إما يوجد استعداد للافتخار بالبِرِّ الذَّاتي، أو حياة غير مُبالية تَأبَى أنْ تَقبَل أي تأديب أخلاقي. وبإمكان أَحد هذيْن الأمريْن أن يُفسِد الفهم الصائب عن التَّبريرِ.

ويُعلِّم الكِتاب المقدس بأنه سيكون انقسام في الكنيسةِ المسيحية: "لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَكُمْ بِدَعٌ أَيْضًا لِيَكُونَ الْمُزَكَّوْنَ ظَاهِرِينَ بَيْنَكُمْ" (1كو19:11). وقَدْ حُدِّد الحقُّ الكِتابي، بسببِ التناقضات التي ظهرت في كل حِقَبِ تاريخ الكنيسة. ولا أَحدَ يمكن أنْ ينكر عمل الروح القدس في المؤمنِ والذي يُحدِث نموًّا في القداسةِ، مُلازمًا لعمل المسيح مِن أجلِ ذلك المؤمن، والعملان ضروريان بنفسِ القدر. كما أنه مِنَ الصوابِ بنفس الدرجة أن التَّبرير ليس بسبب عمل الأول (أي الإنسان)، بل بسبب عمل الأخير (أي المسيح) بنعمةِ الله، لا بمجهودِ البشر، بل باستحقاقات المسيح المنسوبة للخُطاةِ، وليس بِبرِّه المنقول.

المحاضرة السابعة

آراء عن عقيدة التَّبرير في الكنيسة الأنجليكانية منذ عصر الإصلاح

كنتيجة لحركة الإصلاح تبنَّت الكنيسة الأنجليكانية "كنيسة إنجلترا" رأيًا عن التبرير، كان على وفاقٍ تام مع رأي المُصلِحين. ويبدو هذا واضحًا مِن خلال المقالة الحادية عشرة ضمن مقالات أو عقائد الكنيسة الأنجليكانية التسع والثلاثِين[1]، على سبيل المِثال، وكذلك تعليم كتاب The Homilies وهو كِتابٌ يحتوي على تعليم رسمي للكِتاب المقدس، لاستخدامه في الكنيسةِ الأنجليكانية، وقد نُشر عام 1547 وعام 1563 وصُمِّم للقراءة في كل الكنائس[2].

لكن بعد سنوات لاحقة ظهرت عِدَّة آراء مُختلفة عن التَّبريرِ، قُبِلت من الكنيسة الأنجليكانية، فَفي عام 1628، وبتأثير اللاهوت الأرميني، جادل عددٌ مِنْ لاهوتيِّي الكنيسة الأنجليكانية بأنَّ التَّبرير مَبنِيٌّ على بعضِ الصلاح في المؤمنين، وأنه ليس هناك اختلاف جوهري بين الآراء الكاثوليكية والآراء البُروتستانتية.

لم تكن المؤثرات الخارجية وحدها السبب للانجراف عن موقف الإصلاح، بل كان هناك ما أُطلق عليها الكَنْلَكَة (من كاثوليك) الطبيعية في القلب البَشري، وهي الاستعداد الذي فينا جميعا، أن نثق أنه يوجَد فينا كثير من الأمور الجيدة، في دوافعِنا، وفي عاداتِنا الأخلاقية، وهو ما يُزكِّينا لدى الله. فالمَيْلُ الدائم الذي فينا، له تَأثيرٌ قَوي لإبعادنا عن العقيدة القديمة بضرورة نعمةِ الله وحدها، ويحوِّلنا إلى تعاليمِ كنيسة روما وممارساتها.

تلك الكَتْلَكَة الطبيعية تجعلنا مستعدين لأنْ نعتنق أي تأثيرٍ يَبدو أنه يُشجع الكبرياء البشرية لتبريرِ أنفسنا بطريقة من الطرق!

وفي كنيسةِ إنجلترا ظهرت حركة تفترض أن تبريرنا يجب أن يُبْنَى على حقيقةِ تَجَسُّدِ المسيح، لا على طاعته الكاملة في حياتِهِ وموته، ويفترضون أنه بصيرورتِهِ إنسانًا، بيَّن الله لنا استحسانه الأبويَّ غير المُتغيِّر للجنسِ البشري.

كما ظهرت حركة أُخرى في الكنيسةِ، سَعَتْ لتَنشر الخطأ القديم[3] (الذي كان أُزياندر Osiander أوَّل مَن تحدَّث بِه في 1550م)، القائل بأننا مُبرَّرون "بتصوُّرِ المسيح فينا" أو بعملِ الروح القدس فينا. وقد تمادوا في ذلك حتى جادلوا بأنَّ فرائض الكنيسة (وليس الإيمان) هي الوسائل التي بها نحصل على هذه الفائدة (أي التَّبرير).

لو أننا فَهِمنا الحق الكِتابي، لما كان من الصعب علينا أنْ نرى مدى خطأ هذه التعاليم، وكثيرا ما كانت خطأ في الماضي، فعلى سبيل المِثال، أولئك الذين يفترضون أنَّ تَجسُّدَ المسيح هو أساس التَّبرير - حيث أنَّ هذا يُظهِر محبة الله الأبويَّة للبشرِ - يجهلون حقيقة الطبيعة الخاطئة للجنس البشري، فالله ليس مجرد أب لخليقته، لكنه أيضًا مُعطي الناموس وقاضي لأولئك الخلائق الذين يتمردون عليه الآن، بسبب الخطية ويستحقون غضبه. فمن الخطأ - إذن - أنْ نفترض أن صيرورة المسيح إنسانًا برهان على أن الجنس البشري يتمتع بِرضا الله المُقَدَّس، وأنه مبرَّر في نظره بالفعل.

لقد حاول الدكتور نيومان - من الكنيسة الأنجليكانية وأصبح بعد ذلك كردينالا كاثوليكيًّا - أن يُظهر أنَّ رأيَيّ الكاثوليك والبروتستانت بشأنِ التَّبرير صائبان، وأنهما وجهان لحقٍّ واحدٍ؛ فالتَّبرير بالإيمان وأيضا بالمجهود البشري. وقَدْ اعتبر

نيومان أن هذيْن الرّأييْن مُنفصلان وليسا مُتعارضيْن، ولم يرَ تضاربًا في اعتبار الرأيَيْن صائبيْن.

إذا نظرنا إلى هذا التنوُّع في الآراء، الذي ظهر في تاريخ الكنيسة الأنجليكانية، بدءًا مِنْ عصرِ الإصلاح وحتى عام 1867، يصبح من المستحيل التنبؤ بما قد ينشأ عن هذه العقيدة، لكن الأمر الأكثر إلحاحا هو نَهضةٌ روحية عظيمة، تُرجِعنا إلى إنجيل المسيح "لأَنَّهُ قُوَّةُ اللهِ لِلخَلاَصِ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ: لأَنْ فِيهِ مُعْلَنٌ بِرُّ اللهِ بِإِيمَانٍ لإِيمَانٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «أَمَّا الْبَارُّ فَبِالإِيمَانِ يَحْيَا»" (رو1:16، 17).

الملاحظات:

1) تقول المقالة: "نحن محسوبون أبرارًا أمام الله، وذلك باستحقاق ربنا يسوع المسيح فقط، بالإيمان وليس بأعمالنا أو استحقاقنا....".

2) كتاب العظات المعروف باسم Homily on Salvation يشمل على آراء مثل:

- إن المسيح الآن هو بر كل الذين يؤمنون به إيمانا حقيقيا.
- التبرير أو البر الذي نناله من رحمة الله واستحقاقات المسيح، الذي يُغتَنَم بالإيمان، يُؤخذ ويُقبَل ويُسمَح به من الله لتبريرنا التام والكامل.
- هذه العقيدة ليست بفعْلِنا، أن نؤمن بالمسيح، وإيماننا في المسيح هذا الذي بداخلنا، يبرِّرنا .... .

3) اقتُرِحت أولا بواسطة A. Osiander (عام 1550م).

الجزء الثاني

شرح العقيدة

المحاضرة الثامنة

شرح العقيدة "معنى كلمة تبرير كما استُخدمتْ في الكِتاب المقدس"

لنَفهم معنى كلمة من الكِتابِ المقدس، علينا أنْ نفحص معناها واستخدامها في الكتاب المقدس العبري واليوناني، وليس في أي استخدام آخر؛ فكلمةُ تبرير تُستخدم في الكتاب المقدس لتعني القَبول من الله لشخصٍ ما على أنه بارٌّ. فالتَّبرير يَعني أنَّ الله يعامل شخصا مُذنِبًا بِسببِ الخطية كأنه غيرُ مُذنِبٍ، ويُعلِن أنَّ هذا الشخص يُعتبر بارًّا قانونيًّا. (لا تعني أنَّ الشخص قد صار بالفعلِ بارًّا، تماما كما أن كلمة يُمجِّد الله لا تعني أن تجعل الله مجيدا، بل تعني بِبساطةٍ أنْ تُعلِن أنَّ الله مجيدٌ). إنَّ هذا الاستخدام لكلمة تبرير، كإعلان أن الشخص بارٌّ في نظر الناموس، يمكن برهنته بثلاث طرق:

(1) تُستخدم كلمة "يُبرِّر" مضادة لكلمة "يدين" في العديد من الآيات الكتابية، على سبيل المثال (تث25:1)، فإدانة الأشرار لا تَعني أنْ تجعلهم أشرارًا، بل تعني أنَّ هذا هو تصنيفهم بالناموس؛ لذا فكلمة "يُبرِّر" لا تَعني أنْ تَجعل الناس أبرارًا، بل تُعلن أن هذا هو اعتبارهم بحسب الناموس.

(2) إن كلمتَيْ "يُبرِّر" و "بارٌّ" غالبا ما تُستخدمان في الآيات التي تتحدث عن فعل قانوني أو قضائي مثل: مز32:1 ؛ 2:143 ؛ رو33:8. هذه شواهد كتابية للتَّبرير كجُزء مِنْ عملية قضائية، وهذا يُؤكد أن التعبير "يُبرِّر شخصًا" يعني بحسب استخدام الكتاب المقدس، أنَّ الشخص يُعَدُّ بارًّا قانونيًّا.

(3) هناك كلمات أُخَرُ وعِبارات أُخَر تُستخدم كتعبيرٍ مُعادلٍ للتَّبريرِ، وتدل أيضا على تَغَيُّرٍ قانوني لا على تَغَيُّرٍ في الشخصية. على سبيل المثال، وُصِفَ التَّبرير على أنه "حُسبان البِرِّ" (رو3:4 ، 6-8 ؛ 2كو5:19 ، 21). هذا يَعني (رو 5:4) أنَّ البِرَّ تَمَّ حُسبانه لشخصٍ خاطئ[1]. من هذا يتضح ثانية، أن التبرير هو إعلان قانوني كريم مِنَ الله حَسب للخاطئ غفران خطاياه، واعتبره بارًّا بنواله استحقاقات المسيح.

وللتَّبريرِ جانبان: الأول قَبول الله للخُطاةِ كأبرارٍ، والثاني اختبار اليَقين حين يَعرف الخُطاة أنهم مُبرَّرون. فهناك حقيقة التَّبرير، وهناك أيضا برهان هذه الحقيقة. الحقيقة هي إعلان الله، أمَّا البرهان فهو إدراك هذه الحقيقة. ويبدو واضحًا أنَّ قرار الله بتبرير شخص ما، يجب أن يسبق أيَّ برهان على التَّبرير في هذا الشخص.

والاختلاف بَيْنَ هذيْن الجانبيْن لعملية التَّبرير يمكن توضيحه بما سيحدث في الدينونة النهائية؛ فكل أولئك الذين بَرَّرهم الله سوف يُرَوْنَ علانية على أنهم أشخاص مُبرَّرون (مت25:32)، ويُسمَّى هذا اليوم في الكتاب المقدس "يوم استعلان أبناء الله" (رو8:19).

إن جانبَيْ التَّبرير هذيْن (الحقيقة والبرهان) هما سبب التناقض الظاهري بين بولس ويعقوب، اللذيْن كَتبَا عن التَّبريرِ، فبولس يقول: إننا تبرَّرنا بِالإيمانِ بدون أَعمالِ الناموس" (رو3:28)، ويعقوب يقول "... بِالأَعْمَالِ يتبرَّر الإنسان، لا بالإيمانِ وَحْدَهُ" (يع2:24). ليس هذا تناقضا، فبولس يتحدث عن حقيقة التَّبريرِ، فالخطاة يَتبرَّرون لأنَّ الله بِكَرمِه سامحهم وقَبِلَهم من أجل المسيح، وليس بسبب أي أعمالٍ عملوها، وهذا التَّبرير نالوه بالإيمان وحده. أمَّا يعقوب، فيتكلم عن

إدراك الإنسان بِكوْنِهِ مُبرَّرا. فليس للبشرِ أي سبب يجعلهم يفترضون أنهم مُبرَّرون، ما لم تُعطِ أعمالهم برهانا مُقَدَّسا لهذه الحقيقة. إن بولس يكتب عن إعلان الله للتَّبرير، الأمر الذي لا يعتمد على أعمالِنا الصالحة، بينما يكتب يعقوب عن كيفية معرفة أنَّ الناس قد تبرَّروا. فالحياة المُقَدَّسة هي برهان هذه الحقيقة.

ويُقدم كُلٌّ من بولس ويعقوب مثالا لِحُجَّتِهما في ذلك إبراهيم، فجانبا التَّبرير يمكن أن نجدهما في إبراهيم. أوَّلاً: لقد تبرَّر بالإيمانِ قبل أنْ يُختَتن. ثانيًّا: كان هناك برهان عَظِيمٌ على تبريره في حياته، حيث أنه لَمْ يَتردَّد في إطاعة أوامر الله له.

لقد كان بولس يكتب ضد فكرة أننا يمكن أنْ نُبرِّر أنفسنا في نظرِ الله بمجهوداتِنا البشرية، أما يعقوب فكان يَكتُب ضد التعليم الذي لا يكترث بكيفية حياة المؤمنين؛ فالتَّبرير هبة كريمة من الله، تتبرهن بالحياة المُقَدَّسة للمؤمنين. حصيلة هاتين الحقيقتيْن هي ما يعنيه التَّبرير.

الملاحظات:

1) إن المؤمنين لن يستمروا خطاة إذا تبرَّروا، بل سيُظهِرون علامات الحياة الروحية الجديدة، فيمكن أن يُعلَن أنهم قد صُفِح عنهم وتبرَّروا مع أنهم خطاة في اللحظة التي يتجددون فيها.

المحاضرة التاسعة

ما هو التَّبرير؟

يمكن أنْ نفكر في التَّبرير بطريقتين: الأولى أنه عملٌ إلهيٌّ، والثانية أنه أمرٌ يناله الخُطاة، وفي كِلتَا الحالتيْن، فهو يشتمل على غُفرانٍ كاملٍ للخطيةِ، والدخول في رضا الله والحق في نوال الحياة الأبدية.

أوّلاً: التَّبرير عَملٌ إلهيٌّ.

"... اللهُ هو الَّذِي يُبَرِّرُ" (رو33:8)، مِنْ ثَمَّ فإن التَّبرير شيءٌ يَحدث خارج عنا، فأغراض الله للخلاص وُجِدت قبل تأسيس العالم، لذا فهي مستقلة عن أي دور لنا، كما أن التَّبرير عمل يتم في الحال، فليس هناك ما يُسمَّى "التَّبرير التدريجي"؛ وهو عمل قيمته دائمة، لأن الخُطاة المُبرَّرون قد اتحدوا مع المسيحِ إلى الأبدِ (يو24:5).

ومع ذلك فهذا التَّبرير ليس مجرد شيء عمله الله في الأزل، ويظهر الآن، بل هو عملُ الله بخصوصِ أشخاص مُحدَّدين، ويَحدث في وقت مُعَيَّنٍ من حياتِهم. وإلى أنْ يؤمن الخُطاة، فَهُمْ تحت طائلة غضب الله (يو36:3)، وحين يخلصون وينالون غُفرانًا بِنعمةِ الله، فإنَّ علاقتهم مع الله تَتبدل منذ تلك اللحظة، وبكلماتٍ أُخَر، لقد تَبرَّروا.

ثانيا: التَّبريرُ أمرٌ يَناله الخُطاة.

يشمل التبرير الغُفران التام، ورضا الله عن الخُطاة، ونوال الحياة الأبدية (يو3: 16)، ومع ذلك هناك بعض الروم الكاثوليك وبعض البروتستانت الذين يُنكرون

أنَّ التَّبرير يشمل صفحًا تاما عن الخطيةِ. ويفترض البعض بأنَّ الصفح يرتبط فقط بالخطايا التي ورثناها، وآخرون يفترضون إنه يَرتبط بالخطايا التي ارتُكِبَتْ قبل التجديد، كما أن هناك من يقولون إنه يرتبط بسيادة الخطية على المؤمنين، وقد قِيلَ إنَّ المؤمنين - بمجهودهم الذاتي - يجتنون غفرانا مِنْ عقاب الخطايا التي يرتكبونها. إنَّ كل الأخطاء تنشأ عن الجهل بالطبيعة الحقيقية للخطية وعدم الإيمان بحقيقة غضب الله الذي يقع عليها.

ولا يُفهَمُ الغُفران كما يجب، إلا بعد التحقُّق مِنْ أنَّ الخطية تجلب الذنْب، والذنْب يَستمر إلى الأبد. ولا يمكن للتوبة، ولا حتى التجديد، أنْ يُغيِّر حقيقة الذنْب الماضي، لكن الغُفران هو الذي يزيل الذنْب؛ لذلك ليس مِنَ الصوابِ أن نفترض أنَّ تبريرنا يَعني غُفرانًا لبعض جوانب خطيتنا؛ فالغُفران يزيل كل الذنْبِ، وهو الوحيد الذي يُمكنه أن يزيله، أما إذا تَبقَّى الذنْب فلم يكن هناك غُفران حقيقي.

كما أنه من الخطأ أن يعني التَّبرير غفران خطايا الماضي فقط، بحيث يجب بعد ذلك أن نجتني قَبولَنا لدى الله؛ فغُفران الخطية يُعيد الخطاة إلى حالةٍ مِن البراءة، ومع ذلك فالمطلوب منا لا مجرد البراءة أمام الله، بل أنْ نكون أبرارًا إيجابيين. والكتاب المقدس يُعلِّم بوضوح أنَّ الله يَحسب مثل هذا البِرِّ (رو6:4). إن امتلاكنا لاستحقاقاتِ المسيح الإيجابية بالإيمان، هو جُزءٌ مِنْ تبريرنا، تماما كغُفران الله لنا.

وجدير بالذكر أنَّ الامتيازات المسيحية التي ينالها المؤمنون المُبرَّرون، ترتقي من مجد إلى مجد، فهناك الغُفران المتوَّج بالبِرِّ، والبِرُّ المتوَّج بالقَبولِ لدى الله، والقَبول المتوَّج بالتَّبني، كأبناء وورثة الله.

ثالثًا: التَّبرير والتَّقديس متَّصلان اتصالا وثيقا، لكنهما مختلفان الواحد عن الآخر.

في التَّبريرِ يَحسب الله بِرَّ المسيح للمؤمنين، أمَّا في التقديسِ فالروح القدس يمنح نِعمة القداسة ويمنح قُوَّة للحياة بالبرِّ. في التَّبريرِ تُغفر الخطيَّة، وفي التقديسِ يَتِمُّ قهرها بالفعل. التَّبرير يُحرِّر كل المؤمنين، على حَدٍّ سواء، مِنْ غضبِ الله، أمَّا التَّقديس فلا يتساوى في كل المؤمنين، بل يُوجد تَنوُّعٌ بحسبِ نمو كل مؤمنٍ في النعمةِ. والتَّقديس لا يمكن أن يكون تاما في أي شخصٍ في هذه الحياة، لكن المؤمنين لا يمكن أنْ يتبرَّروا بدرجة أكبر مما هم عليه الآن! فتبريرهم يشمل القَبول التام لدى الله، والحقَّ في الحياة الأبديَّة.

المحاضرة العاشرة

التَّبرير وناموس الله

إنَّ مُعظم الأفكار الخاطئة عن التَّبريرِ، نشأت عن الأفكار الخاطئة عن ناموس الله، ونحن نَعني بناموسِ الله، القوانين الأخلاقية التي بها يَحكم الله خليقته، فلو كان عدل الله لا يتطلب طاعتنا الصارمة لقوانينه، أو أمكن لرحمة الله أنْ تصفح بشكل ما عن عصياننا لقوانينه، لكان التَّبرير في نظر الله أمرًا يَسيرًا! وما كان علينا أن نحفظ نواميس الله تماما.

إنَّ الحقيقة هي أنَّ ناموس الله يتطلب طاعتنا الكاملة، ولا يمكن لأحد أنْ يتبرَّر في نظر الله، ما لم يكن بارًّا تمامًا بلا خطأ، ومقدَّسًا تماما. وصرامة عدل الله تَحُول دون أنْ يَتَساهل مع مُتطلبات التَّبرير. وعلينا أن نَفهم أنَّ ناموس الله هو المِعيار الأسمَى الذي ينبغي أن يَصلَ إليه بِرُّنا إن أردنا أن نتبرَّر. هذا يبدو واضحًا من النظام الذي وضعه الله لآدم وحواء حين خلقهما، فلقد أعطاهما الله وصيةً خاصةً، مكافأة طاعتها: الحياة الدائمة، وأمَّا عقاب عصيانها فيجلب عليهما الموت؛ لذا فتبريرهما كان يعتمد فقط على طاعتهما الكاملة لذاك الناموس. علاوة على ذلك فإنَّ الكتاب المقدس يوضح أنَّ آدم كان مُطالَبًا أنْ يُطيع الله تماما، ليس فقط مِنْ أجل صالحِهِ الشخصي، بل من أجل كل من يمثِّلهم من الجنس البشري الذي سينحدر منه (رو12:5). وليس هناك تفسير مُرضٍ لشموليَّةِ وجود الخطية في الجنسِ البشري ولا لسيادة الموت على الجميع، ما لم نَقبل ما أورده الكتاب المقدس بأنَّ هذه هي نتائج خطية آدم، التي تؤثِّر فينا جميعا الآن.

مِنْ هذا يَنتج أنَّ خطيَّة آدم جَعلَتنا جميعًا خطاة، لأنه كممثلنا، حُسب ذنبهُ علينا. وليس هذا ذنبنا الوحيد، فلقد ورثنا نحن طبيعة آدم الخاطئة، وهذا ما يجعلنا نُخطئ فنُضيف إلى ذنْبِنا الذنْب الذي تَسلَّمناه مِنْ آدم! وبسبب هذيْن الذنْبَيْن (ذنْبنا، وذنْب آدم) لا يُمكننا أنْ نُبرِّر أنفسنا بادعائنا بأننا حفظنا ناموس الله بلا خطأ؛ فهناك شيءٌ لا يُمكن للناموسِ أنْ يفعله، فهو لا يَقدر أنْ يُبرِّر الخُطاة (رو3:8)، ونحن أكثر من خطاة بشكلٍ مُتضاعف، ولذلك فإننا في ذواتنا أبعد ما نكون عن التَّبريرِ.

وكمَخْرجٍ مِنْ هذه الصعوبة، افترض البعض أنَّ ناموس الله لَمْ يَعُدْ مستوجِبا للطاعة، أو يفترضون أنَّ الناموس قد تَمَّ تحويره لتكون طاعته مُمكنة، حتى مِنَ الخُطاة. (كما وُضع احتمال ثالث وهو: أنَّ البشر ليسوا خُطاة، ومِنْ ثَمَّ فإنهم قادرون على حفظ ناموس الله. واضح أن هذا الاحتمال بعيد جِدًّا عن الحقِّ، ولا يستحق مُناقشة جادة).

هل يمكن القول إنَّ ناموس الله قد تَمَّ إلغاؤه، ولَمْ يَعُدْ يستلزم أنْ يُطاع بَعْد؟ كلا! فإن كان الله لا يتطلب طاعتنا بعد، فإننا لا نكون محكومين بأيِّ حُكمٍ أخلاقي على الإطلاقِ! ولو لَمْ يُعطِنا خالقُنَا أيَّة قوانين، فلا يُوجد معنى للخطيةِ. "... عَلَى أَنَّ الْخَطِيَّةَ لاَ تُحْسَبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَامُوسٌ." (رو13:5).

ويُعتبر صوت الضمير وهْمٌ إذا لَمْ تَكُنْ هناك قواعد عامة. مِنَ الأفضل أنْ يحكمنا إله بارٌّ، عَنْ أنْ نعيش في عالمٍ بلا قانون! وعليه، فلو أنَّ قانون الله لَمْ يُلغَ، فَهل يُمكننا أنْ نقول إنَّه حُوِّر ليتمكن الخُطاة أن يحفظوه؟ لو قُلنا هذا، فإنَّ العجز البشري عن حفظ ناموس الله، يَعني أنَّ الناموس يجب أنْ يُعَدَّلَ ليُناسِبَ الضعف البشري، لكن هذا يَعني بالتالي أنه كلما ازداد شرُّ الإنسان، كلما استوجب زيادة تطويع ناموس الله، وبالتالي سيتلاشى ناموس الله بتزايد الخطية.

قال آخرون إنَّ آلام المسيح وموته قد حَوَّر السلوك الذي يطلبه الله منا الآن، فإن حاولنا مُخلِصين أنْ نحيا بأفضلِ ما يُمكن، فيُمكننا أنْ نَتبرَّر، مع أننا غير كاملين. لكنَّ العديد مِنَ الأسئلةِ تبرز هنا، مِثل: ما هو هذا الناموس الجديد المُعدَّل؟ وهل يمكن إرضاء أي ناموس، حتى لو كان مُعدَّلا، بطاعةٍ غير كاملةٍ؟ لو أنَّ عدم الكمال أمرٌ مسموحٌ به، فما هو الحَدُّ الأدنى للطاعة؟ وكيف لطاعةٍ غير كاملةٍ أنْ تكون مُخَلِّصةٌ، لو كان معروف أنها غير كاملة؟ وأين وردَ في الكتاب المقدس أنَّ المسيح جاء ليحوِّر الناموس؟

لا يوجد مؤمنون كاملون مع أنهم مَقبولون لدى الله، بِغَضِّ النظر عن الطاعةِ غير الكاملة، لكنَّهم مَقبولون ليس في ذواتهم، بل بسبب علاقتهم بالمسيح يسوع، فالمؤمنون لا يعتمدون في تبريرهم على أعمالهم غير الكاملة، بل على استحقاق يسوع المسيح.

أخيرًا، يجب أنْ نَفهم أنَّ نواميس الله لَيستْ مجرد قواعد صمَّمها ويمكنه إن أراد أن يُلغِيها أو يحوِّرها، بل هي تَعبيرٌ عن طبيعته الأخلاقية، فهو قُدوسٌ، وعَادلٌ، وصَالحٌ؛ ومِنْ ثَمَّ فنواميسه مُقَدَّسةٌ، وعادلةٌ، وصالحةٌ، ولا يُمكن لناموسِهِ أن يطلب شيئًا أقل من القَداسة، والعدل والصلاح. ناموس الله لا يُلغَى أو يُحوَّر، إلا إذا كان مُمكنًا أنْ تُحوَّر طبيعة الله!

مِنْ هذا نستنتج أنَّ الله لا يمكن أنْ يكون رحيمًا مع أيِّ شخصٍ مُذنبٍ، إلاَّ إذا قُدِّمت كفارةٌ عَنْ خطية هذا الشخص بطريقةٍ ما؛ فَقداسة الله وعدله وصلاحه، أمورٌ لا بد أن تُسْتَوفَى، قبل أنْ يُبرَّر أيُّ شخصٍ. لا بد أنْ يُسْتَوفَى الناموس. عند هذه النقطة نَحْنُ نقبَل الإنجيل بفرحٍ، لأنه الطريق الوحيد الذي به يمكن أنْ يَتبرَّر الخُطاة.

المحاضرة الحادية عشرة

التَّبرير وحياة المسيح وموته

يتضح من الكتاب المقدس أنَّ التَّبرير ومجيء المسيح، أمران مُرتبطان بناموسِ الله. ومُتطلبات ناموس الله تشترط حاجتنا لأن نتَبَرَّر، فقد جاء المسيح ليُكمِّل الناموس. مِنْ ثَمَّ فالتَّبرير ومجيء المسيح أمران يجب أنْ يرتبطا ببعضهما البعض. ويَتفق كل المؤمنين على أنَّ المسيح أطاع كل مشيئةِ الله، ومِنْ هذه الطاعة ينشأ تبريرنا. لكن ليس الكل يتفقون على أن تبريرنا ينشأ تماما عن طاعة المسيح.

افترَض البعض أنَّ طاعة المسيح هي سبب محبة الله للخطاة، وافترض البعض الآخر أنه بسبب محبة الله فهو يكون كريمًا مع الخُطاة، ولا يطلبُ كفارة عن خطاياهم، كما لو كانت محبة الله تَنْفي غضبه من الخطيةِ، لكن الكتاب المقدس يُظهِر خطأ هذيْن الرَّأييْن، كما يلي:

(1) يُوضح الكِتاب المُقدس أنَّ هدف الله الأزلي هو أنْ يُبرِّر الأشرار مِنْ خلال المسيح، وبهذا يُعلن كمال طبيعته الإلهية، فعلى سبيلِ المثال، فإننا نقرأ في الكتاب المقدس عن قصد الله الأزلي الذي قصده في المسيح يسوع ربنا (أف3:11). مِنْ ثَمَّ لَمْ تَكُنْ طاعة المسيح لناموس الله سبب محبة الله للخطاةِ، بل محبة الله الأزلية هي التي شكَّلت هدف إرسال المسيح ليحفظ ناموسه، ويموت عن الخُطاةِ. فَخَلاصنا يوضح أن المحبة طبيعة الله.

علاوة على ذلك، فإن خطة الله للخلاصِ توضح حقيقة أنَّ الله ثالوث، فيُعلِّمنا الكتاب المقدس أنَّ الله الآب أرسل الله الابن، ليكون مُخلِّصًا، والروح القدس يقدِّم هذا الخلاص للخطاة. ويوضح الكتاب المقدس جليًّا أنَّ هذه الأقانيم الإلهيَّة الثلاثة، اتفقوا معًا على تنفيذ خطة الخلاص. ويُعزِّي المؤمنون أنفسهم، بأنَّ الخلاص مبنيٌّ على قصدِ الله الثالوث الموحَّد الأزلي؛ فالخلاص يُعلِن لنا طبيعة ثالوث الله.

يُوضح الكتاب المقدس أيضًا، أنَّ الله يمكن أن يُمارِس المحبة والغضب المقدس معًا، فهل أحَبَّ الله الآب أي شخصٍ مثلما أحَبَّ الابن، ومع ذلك، هل يعاني أي شخصٍ من غضب الله المُقَدَّس المُعلَن على الخطية في الصليبِ مِثلما تألم المسيح؟ ولذلك، فبتبرير الخُطاة أُكملت محبة الله. فالخُطاة يُخَلَّصون بموْتِ المسيح عنهم، وغضب الله المُقَدَّس قد استُوفي، فلقد كُفِّرَ عن الخطية بموت المسيح، والله يُعلن كمال عدلِهِ الأزلي ومحبته الأزلية في خطةِ الخلاص، بطريقة لا تجدها في أي مكانٍ آخر.

(2) يُوضح الكتاب المقدس أنَّ المسيح يُخلِّص ويُبرِّر شعبه بصيرورتِهِ بديلاً عنهم. إنه ليس مجرد نبي يُعلِّمهم، ولا مجرد ملك ليَحكُمهم، لكنه كاهن وذبيحةٌ بالنيابة عن شعبِهِ.

ولقد شَكَّ البعض في عدالة أنْ ينال شخصٌ عِقابًا يستحقه شخصٌ آخر بِمثلِ هذه الطريقة، وحُجَّتهم هي أنَّ الذي يُخطئ يجب أنْ يُعاقَب. وللإجابةِ نقول إنه باعتبارِ آدم مُمثِّلاً للجنسِ البشري، فلقد استخدم الله نفس الطريقة – بأنْ يأْخذ واحدٌ مكان الآخرين (رو5:19). وبما أنَّ الله قد استخدم طريقة التمثيل هذه، فهذا يعني أنها طريقة صائبة. مِنْ ثَمَّ، فكما أنَّ خير الكثيرين اعتمد على آدم، هكذا فإنَّ خير الكثيرين يعتمد على المسيح أيضا. ولكي يصير المسيح بديلاً حقيقيًّا، فهو "مَوْلود

من امرأة، مَوْلُود تَحْتَ الناموس" (غل4:4). وبكلماتٍ أُخَر لقد كانت له نفس الطبيعة البشرية التي لشعبه، وكان عليه أن يحفظ نفس الناموس الذي فشل شعبه في حفظِهِ. وبسبب هذه التشابهات فلقد قُبِلَ المسيح كبديلٍ شرعي عن شعبِهِ.

(3) يقول الكتاب المقدس إنَّ عمل المسيح كَمُخَلِّصٍ يشمل تجسُّدَه وحياته المُطيعة تماما للآب، وآلامه وموته (في8:2). ويُعتبر اتحاد الطبيعة الإلهية والإنسانية في المسيح، هو المؤهل الفريد الذي يجعله مُناسبًا جدًّا لعمل الوسيط بين الله والبشرية، فلا يقدر أحدٌ - بل يبدو مُستحيلاً - أنْ يُرْضِي الله المُستاء، سوى الله نفسه. ولو أنَّ كل الخطاة في العالم اشتركوا معا، فإن مجموع قرابينهم لن تكون كافية، لكن في المسيح ترتبط طبيعتاه الإلهيَّة والإنسانيَّة، بدرجة تجعل إنسانا كاملا يكون هو الذبيحة، وَمُتلِكًا أيضا القيمة اللامحدودة لطبيعة الله. وبكلماتٍ أُخَر، فإنَّ تَجسُّد المسيح يَسَّرَ كُلَّ امتيازات عَمله كوسيط.

وقد اشتمل هذا العمل كونه عبدًا كاملاً لله طوال حياته، وكونه بديلاً عن شعبه في موْته. وهكذا كان المسيح هو الوسيط الوحيد الكامل بَيْنَ الله والجنس البشري. وتنوَّعت الأسباب التي أسهمت في موْته (إرادة الله، واستعداده الشخصي، ومحبته، وشرُّ البشر الذين كرهوه، وعمل الشيطان...الخ). لكنَّ السبب الأعظم لموْتِهِ كان خطايا شعبه (إش53:5). لقد تطلب ناموس الله عِقاب الخطية وبِرَّ الطاعة، وفي المسيح استُوفِي الاثنان، ليس لحسابِهِ هو، بل مِنْ أجل آخرين.

(4) يُخبرنا الكِتاب المقدس أنَّ ما فعله المسيح أرْضَى ناموس الله تماما، فلقد أطاع المسيح كل مُتطلباتِ الناموس، ودَفعَ كل عقوباته، مِنْ ثَمَّ فقد حصل على الخلاص لكل مَنْ مات مِنْ أجلِهم، ولَمْ يَعُدْ يهددهم الناموس.

وقد افترض البعض أنَّ استحقاقات عمل المسيح لا يُمكن أنْ يحصل الخطاة عليها، إلا بأعمالهم الصالحة الآن، ومثل هذا الرأي لا يحرمنا فقط مِنْ نوالِ الخلاص الكامل في الحال، بل يهين المسيح بأن يشين عمله (سوف نتعرض لهذا الأمر تفصيلاً في المحاضرة التالية). وعلى النقيضِ من ذلك، فإننا نعرف مِنَ الكتاب المقدس أنه كنتيجةٍ لامتيازات عمل المسيح الخلاصي، فالمسيح له الآن كل السلطان في السماءِ والأرض، ليُعطِي الحياة الأبدية لأولئك الذين يختارهم، فما الحاجة إذًا لأيِّ استحقاقات إضافية منا؟

(5) إنَّ تبرير الخُطاة أمرٌ ممكن، بحسب الكتاب المقدس، لأنَّ المسيح قد أرْضَى ناموس الله وعدله، فالله لم يلغِ عِقاب الخطية فحسب، أو تَجاهل متطلبات عدله، فلو كان قد فعل ذلك لجَعَل عدلَهُ عديم الأهمية، لكن الواقع، أنَّ عدل الله قد أُكرِم لأنَّ المسيح أرْضَى متطلبات الله تمامًا.

ولكي نُلخِّص مَا سبقَ، نقول إن التَّبرير يرتكز على موت المسيح (رو5:9،10) وهو مُرتبط بطاعة المسيح (عب5:8)، وبِبرِّه (إش45:24-25)، وباسْمِه (1كو 11:6)، وبمعرفته (يو17:3،4). إنَّ شعب المسيح يعتمدون، في قَبولِهِمْ لدى الله اعتمادا تاما، على امتيازات كل جوانب عمل المسيح (انظر إر23:6).

وبهذا العرض لإمكانياتِ المسيح هذه، يمكننا أن نرى ثانية كيف أنَّ خطة الخلاص تُظهِر جوانب مختلفة لطبيعة الله المجيدة. إن مجد الله يُرَى في وجه يسوع المسيح، وتبريرنا بالتالي ينشأ مِنْ قصد الله الأزليِّ لإظهار مجده في خلاصنا. يا له مِنْ أمرٍ مُعزٍّ لنا أنْ يكون لنا مِثْلُ هذا اليقين، وأن نعرف أنَّ كل إرادة الله قد كُرِّمت وَتَمَّ إرضاؤها تمامًا نيابة عنا!

المحاضرة الثانية عشرة

استحقاقاتُ المسيح هي الأساس الوحيد لتبريرِنا

يتفق الكثيرون على أنَّ تبريرنا مرتبط بعملِ المسيح كمُخَلِّصٍ ووسيطٍ، لكنهم لا يتفقون جميعا على أنَّ التَّبرير يعتمد على عملِ المسيح فقط. وكما رأينا في المحاضرة السابقة، فلقد اقترح البعض بأنَّ ما فعله المسيح لا يُبرِّر بالفعل أي إنسان، لكنه يسهِّل تبريرنا لو أضفنا أعمالنا الصالحة إلى عمل المسيح. مِنْ ثَمَّ فمن الضروري أنْ نكون متيَقِّنين أنَّ برَّ المسيح هو الأساس الأوحد لتبريرِنا، كما يُعلِّم الكتاب المقدس. وهنا أقدِّم أربع نقاط:

(1) إن البرَّ الذي يعتمد عليه التَّبرير يُوصَف بأوصاف متنوعة: "برُّ المسيح"، "البرُّ الذي بالإيمانِ"، "طاعة الواحد"...الخ. أما الأكثر أهمِّية هو أَنْ يُسمَّى "برُّ الله". مِنْ هذه العبارات يتضح أنه لا يوجد بين هذه الأوصاف برٌّ يُقدَّم مِنْ إنسانٍ مُخلَّص أو غير مُخلَّص.

فلو أنَّ برَّنا يمكنه أنْ يجعلنا مَقبولين لدى الله، لما كانت هناك ضرورة لبرِّ الله"، ولو أنَّ "برَّ الله" هو ما نحتاجه (كما يُعلِّم الكتاب المقدس) فلا توجد فائدة من أي برٍّ بشري (انظر رو3:20-22). ولا يقترح الكتاب المقدس إطلاقًا بأنَّ البِرَّ البشري ضروري لقَبولِنا لدى الله. إن الكتاب المقدس يوضح أن التَّبرير مبنيٌّ على "برِّ الله".

لكن، ما معنى عبارة "برِّ الله"؟ اقترح البعض: أنه أسلوب الله في تبرير الخطاة. في هذه الحالة فإن برَّ الله لا يعني استحقاقًا فعليًّا يُمكن تحويله للآخرين، لكن هذا

التَّفسير لا يتماشى مع بعضِ الآيات مثل: "بالمسيح يسوع الذي صار لنا حِكْمَةً مِنَ اللهِ وبِرًّا ...الخ" (1كو1:30). هذا يستلزم أنْ تُعطَى لنا فعلا استحقاقات حياة المسيح البارَّة، وموته طواعية، لذلك "فبِرُّ الله" لا يمكن أنْ يَعني مجرد الطريقة التي يتبعها الله ليجعلَنا أبرارًا، بل يجب أنْ يَعني قيمة الأمورِ الصائبة التي صنعها الله في المسيح.

وثَمَّة أوصاف أُخَر لهذا البِرّ، مثل: "برُّ المسيح" و"طاعة الواحد"، كلها تُؤكد أنَّ البِرَّ الذي يعتمد عليه التَّبرير، ليس في عمل بعض الطرق الإلهية، بل الاستحقاق الفعلي الذي حصل عليه المسيح من خلال حياته وموتِهِ.

(2) يَتبرَّر المؤمنون بقيمة هذا البِرِّ المحسوب لهم؛ فالتَّبرير لا يجعلهم أبرارا في ذواتهم، فعلى سبيلِ المثال، خطأ أنِسيموس في حَقِّ فليمون حُسِب على بُولس (فل 18) مع أنَّ الخطأ لم يقترفه بُولس فعليًّا، لكنه كان خطأ أنِسيموس المذنب، وبنفسِ الطريقة، فبِرُّ المسيح الذي حُسِب لنا، لا يعني أنه يُمكن أنْ يُقال عَنَّا أننا مَنْ عَمِلوا أعمالا جديرة بالتقدير. وبنفس الطريقة أيضا، فإنَّ خطايانا قد حُسِبتْ على المسيح حين مات بدلاً عنا، ومع ذلك فلا يمكن أن يقال إنه ارتكَبَ هذه الخطايا. وهكذا فحين يُحسَب بِرُّه لنا، فهذا لا يَعني أننا بالفعل عِشنا بالبر.

(3) وحتى حين يُحسَب بِرُّ المسيح لأيِّ خاطئ، فهو يَبقَى "بِرُّ المسيح". هذا البِرُّ قد شارَكَ المسيح به الخاطئ، ولكنه يظل بِرَّ المسيح ولا يُمكن للخاطئ أنْ يقول: "إنِّي أستحق الآن الحياة الأبديَّة كمُكافأة لأَني أنا بارٌّ"، فالبِرُّ يُصبح برَّنا، فقط حين نتَّحد مع المسيحِ؛ فبِرُّنا فيه.

(4) إنَّ كل ما فعله المسيح بطاعته الكاملة لإرادةِ الآب، وبَذْلِهِ لِذاتِهِ على الصليب، فَعَلَه "كبديلٍ عن شعبِه"، لذلك أُعطِيَ لهم كل الاستحقاق الذي حصل

عليه المسيح. والتَّبرير الذي يناله الخُطاة إنَّما هو كامل وتام، وهم لا يحتاجون إلى أيِّ شيءٍ آخر ليُكْمِل قَبولهم لدى الله.

لقد اقترح البعض بأنَّ هذه العقيدة "عقيدة الحسبان" (أي نقل وحسبان صلاح أو شرِّ إنسان إلى آخر) إنما هي نظرية من اختراعِ البشر، فَهُمْ لا يؤمنون أنَّ الجميع قد جُعِلوا خُطاة بسبب خطيَّة آدم، ولا يؤمنون بأنَّ أي واحد يمكن أن يتبرَّر بطاعةِ المسيح فقط. وعلى النقيضِ مِنْ هذا، يجب أن يقال إنَّ حسبان الخطيَّة وحسبان البرِّ إنَّما هي حقيقةٌ مُعلَنةٌ في الكتاب المقدس، كما رأينا في محاضرات سابقة، وما أعلنه الله في الكتاب المقدس يجب أنْ نُصدِّقه.

"قَالَ لِي: إِنَّمَا بِالرَّبِّ الْبِرُّ وَالْقُوَّةُ. إِلَيْهِ يَأْتِي وَيَخْزَى جَمِيعُ الْمُغْتَاظِينَ عَلَيْهِ. بِالرَّبِّ يَتَبَرَّرُ وَيَفْتَخِرُ كُلُّ نَسْلِ إِسْرَائِيلَ". (إش45:24،25). ولا يُوجد أي تبرير لنا بأيَّة طريقةٍ أُخرى غير بِرِّ المسيح المَحسوب لنا.

المحاضرة الثالثة عشرة

علاقة التَّبرير بنعمةِ الله والمجهود البشري

اقترح البعض بأنَّ تبريرنا إنْ كان هبة مُنِحَتْ لنا بنعمة الله، فلا يمكن أنْ يكون نتيجةَ الفداء المدفوع، لكن بولس الرسول لَم يجد صعوبة في ربطِ كلٍّ من نعمة الله وعمل المسيح الفدائي بتبريرِنا: "متبرِّرين مَجَّانا بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ" (رو3: 24).

ولا يجب أنْ نعتقد أن نِعمةَ الله التي مُنِحت لنا إنما هي مِنَ الأمور التي حصلنا عليها بسبب عمل المسيح الفدائي، بل الأحرى، أنَّ عمل المسيح الفدائي ينبع من نعمة الله لنا. مِنْ ثَمَّ فالتبرير بالنعمة ومِنْ خلال الفداء الذي دفعه المسيح.

إنَّ التبرير بعطية الله الكريمة لنا، نراه في الكتاب المقدس يرتبط دائمًا بالإيمانِ والنعمة، وليس بأي أعمالٍ يمكن أنْ يقوم بها الخُطاة (رو4:16). وعلى النقيضِ مِنْ ذلك، فإنَّ الرسول بولس يوضح تبايُنًا قَويًّا بين محاولاتِ التبرير عن طريقِ المجهود البشري، والتبرير الذي يُقَبل بالإيمان بالمسيح (غل2:16). واضحٌ أنَّ التبرير الكِتابي مُرتبطٌ بالنعمة والإيمان وليس بالأعمال البشرية.

ويُمكننا أنْ نرى بسهولةٍ لماذا لا يُمكنُ للخطاة أنْ يَتبرَّروا بِمجهوداتهم الذاتية، فإنهم مُذنِبُون لأنهم أخطأوا، مِنْ ثَمَّ لا يمُكنهم كَمُذنبين أنْ يُقدِّموا أعمالاً صالحةً! وناموس الله يَدينهم كَمُذنبين، ولا يمكن أن يدعوهم أبرارًا، أو يوافق على أعمالِهم.

ولقد جادل البعض بقولِهِمْ، إنَّ الناموس الوحيد الذي ينبغي أنْ يُحفَظ للحصول على التبرير في نظرِ الله، إنما هو ناموس الطقوس الخارجية الذي أُعطِيَ لليهودِ. لو أنَّ الأمر كذلك، فَمِنَ الممكن أنْ يحفظ الإنسان مثل هذا الناموس، لكن حين يكتب الرسول بولس عن الناموسِ الذي يجب أنْ يُحفَظ تماما، والذي لا يمكن أن يُبرِّر خُطاة مُذنبين، فمن الواضح أنه لا يُشير إلى أيَّةِ مُمَارساتٍ، بل إلى ناموس الله العام والأخلاقي (رو3:10-20). علاوة على ذلك، فحين يكتب بولس عن تبرير إبراهيم فهو يُشير إلى أنَّ ذلك كان قَبْلَ إدخال مُمَارسة الخِتان (رو4:3 ؛ قارن تك15:6 ولَمْ يكن الخِتان مطلوبًا إلى تكوين 17). يتضح مِنْ هذا، أنَّ إبراهيم لَمْ يَتبرَّر بحفظِهِ لأيَّةِ طقوس ناموسية، ولهذا فلا يُمكننا أنْ نوافق على أنَّ التبرير ما هو إلا مسألة حِفظ طقوس خارجية.

إنَّ الله يَطلب أنْ يُحفظ ناموسه الأخلاقي تمامًا، ومِنْ ثَمَّ، ففيما يختص بالخُطاة المُذنبين فإنَّه "... بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ كُلُّ ذِي جَسَدٍ لاَ يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ (رو3:20)، فالأعمال الصالحة لا يُمكنُ أنْ يعملها المذنبون، لأن العمل الذي يوصَف بالصلاحِ في نظر الله يجب أنْ يكون:

1- مُطابقًا لمشيئته .
2- نابعًا مِنَ الطاعة.
3- نابعًا مِنْ دافع قويم.
4- مُعبِّرًا عَنْ محبة لله.
5- مؤدِّيًا لمجد الله.

ولذلك لا يُصبح التَّبرير مُمكنًا لو استوجب أن يكون عن طريق مجهودات خُطاة مُذنبين، لا يُمكنهم أنْ يقوموا بعملٍ صالحٍ واحدٍ يحقق هذه المُتطلباتِ الخمس.

وحتى بالنسبة للمؤمنين، فالتَّبرير لا يُبنَى على أيِّ عملٍ مِنْ أعمالهم الصالحة، ولا شك أنَّ المؤمنين مُطالَبون أن يعملوا أعمالا صالحة (عب13:15 ، 16)، نابعة من إيمانهم، كما هو واضح مِنْ أمثلةِ عبرانيين أصحاح 11. هذه الأعمال الصالحة النابعة من الإيمان، هي برهان التَّبرير الذي بالإيمانِ، كما رأينا. (سوف ندرس هذا الأمر بالتفصيل في المحاضرة القادمة)، إنَّ أعمال المؤمنين الصالحة، لا يُمكن أنْ تكون سبب التَّبرير، وإن كانت هي برهان حدوث التبرير.

والأكثر مِنْ ذلك، فحتى أعمال المؤمنين الصالحة تفتقر إلى الكمال (غل17:5). ومع أن أعمال المؤمنين الصالحة تَسُرُّ الله أكثر من الأعمالِ الشريرة التي يقترفها الأشرار، إلا أنهم غير كاملين بعد، لأنه لا يُوجد مؤمنون كاملون روحيًّا في هذه الحياة. الواقع أنه كلما زاد النضج الروحي للمؤمنين كلما زاد اعترافهم بشر خطاياهم، لذلك فحتى أعمال المؤمنين الصالحة ليست بالصلاح الكافي ليحصلوا على تبريرهم.

إنَّ التَّبرير بالنعمة والإيمان لا ينفي حاجة المؤمنين لإظهارِ الثمر الصالح للروح في حياتهم، لكنه ينفي أنْ تكون هذه الأعمال الصالحة هي السبب في تبرير المؤمنين (في3:7-9).

المحاضرة الرابعة عشرة

علاقة التَّبرير بالإيمان

لقد اقترح البعض أنه برغم عدم استطاعتنا الحصول على التَّبرير عن طريق أيَّة أعمالٍ نُؤدِّيها، فالإيمان في حد ذاته إنما هو عمل استحقاقي يجعل تبريرنا مُمكنًا إلى حَدٍّ ما.

ويقول الكتاب المقدس عن إبراهيم، إنَّ إيمانه "حُسِبَ لَهُ بِرًّا" (رو4:3)، لذلك يقترح البعض أنَّ إيمان إبراهيم كان سبب تبريره، وأن امتلاك الإيمان شأنه شأن التَّبرير.

ويُوصف التَّبرير بطرق متباينة في الكتاب المقدس على أنه "مِنْ إيمانٍ" "ولإيمانٍ"، وبواسطة الإيمان" "ومن خلال الإيمان". مِنَ الواضح أنَّ هناك ارتباطًا قَويًّا بين التبرير والإيمانِ، ومِنَ الواضح أيضًا أنهما لا يُمكن أنْ يكونا اسميْن لنفسِ الشيْء، لو أنَّ الشّيئين يجب أن يرتبطا بحروفِ جرٍ (مثل من أو ل) أو بواسطة أو من خلال.

فكيف إذًا يُمكننا أنْ نَفهم العدد القائل: "فَآمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللهِ، فَحُسِبَ (أي إيمانه) له بِرًّا؟" هناك طريقتان يُمكنُ بهما فَهْم هذا القول:

الطريقة الأولى: إنَّ كلمة "إيمان" تُستخدم عادةً، لا لتَعني فعل التصديق نفسه، بل الحقائق التي تُصدَّق. مثال على ذلك: ".... الإيمان الْمُسَلَّمِ مَرَّةً لِلْقِدِّيسِينَ" (يه3). ولو أنَّ كلمة "إيمان" استُخدمت بهذا المعنَى عن إبراهيم، فهذا يَعني أن المسيح

(النسل الموعود) هو الذي حُسِبَ لإبراهيم للبِرِّ، لأنَّ الوعد بالنسل كان هو الحق الذي آمَنَ به إبراهيم (تك15:5 ، 6).

(2) آخرون اقترحوا أنَّ مُصطلح "إيمان" يجب أنْ يُفهَم على أنه دور إبراهيم في التصديق، فالله يمكنه أن يرى أن هذا الإيمان إيمان خلاصي أصيل. مِنْ ثَمَّ، كان إيمانًا عرف الله، أنه يمكن أن يصل إلى بِرٍّ، إيمانا يمكنه أن يجعل إبراهيم مُطيعًا لله. وكما أن البذرة لها إمكانية الإثمار فيها، كذلك فإن هذا الإيمان قد تضمن يقينًا لخلاصٍ كامل لإبراهيم، ولذلك فقد اعتُبر مبرَّرا.

إنَّ العبارة المُستخدمة عن إيمانِ إبراهيم "للبرِّ" أو "كَبرٍّ" (رو3:4) تَعني حرفيا "نحو البر" ومِنْ هذا يتضح أنَّ التَّبرير والإيمان، مع أنهما مُرتبطان بشدَّةٍ فإنّهما لَيْسَا متماثلَيْن. فالإيمان ليس هو البرّ نفسه، الذي يقدم التّبرير، لكنَّ الإيمان يَتطلع إلى هذا التَّبرير.

ويُوصف الإيمان على أنَّه عطية الله (في29:1)، وهو نِعمةٌ رُوحيَّة تُنشِئ طاعة لإرادةِ الله في حياتنا، ومع ذلك فإنَّ طاعة الإيمان هذه ليست هي البرّ الذي به نُقْبَل من اللهِ - كما رأينا سابقًا.

أمَّا الإيمان المُطيع فهو الوسيلة التي بها نقبل بِرَّ المسيحِ، فالإيمان هو الأداة التي عن طريقها يمكن الحصول على البِرِّ. إنَّ تناول الطعام ضروري لتغذية أجسادنا، لكنَّ الطعام الذي نأكله هو الذي يُغذينا بالفعل، وبالمثل، فإنَّ الإيمان ضروري لنوال البِرّ، لكنَّ بِرَّ المسيح هو الذي يُبرِّرنا.

إنَّ الإيمان هو الوسيلة الوحيدة لنوالِ التَّبرير، والتَّبرير ليس بالإيمانِ مضافًا إليه المعرفةِ بأنَّ الشخص مِنْ مُختاري الله، و ليس التَّبرير بالإيمانِ مضافًا إليه قَدْر

معين مِنَ الاقتناعِ بالخطية. الحقيقة أنَّ أحدًا لن يؤمن ما لَمْ يَكُنْ مُختارًا مِنَ الله، ومُقتنعًا بخطيته وحاجته لمُخَلِّصٍ، لكن التبرير يأتي أساسا من إيماننا بوعد الله بخلاص الخطاة في المسيحِ وليس أي شيء آخر يمكن أنْ نعرفه أو نَشعر به.

والسبب الذي مِنْ أجله يُعَدُّ الإيمان وحده الأداة التي بها نحصل على التَّبرير، لأنه بالتصديق يُمكننا الاعتماد على عمل المسيح الخلاصي وليس بأي طريق آخر. فليس الأسف على الخطية هو ما يُوحِّدنا بالمسيح، وليست النِّعم الروحية من محبة ورجاء، هي التي تجعلنا شُركاء في بِرِّ المسيح، بل باستخدام الإيمان، يمكن للخُطاة أن يعتمدوا على المسيح لخلاصهم.

ونِعَمٌ أُخَر توجد، حين يُوجَد الإيمان الحقيقي؛ لأنَّ الإيمان هو جُزءٌ مِنْ كل الحياةِ الروحيَّة، التي تظهر متجدِّدة في المؤمنين بعمل الروح القدس، لكن الإيمان بصفة خاصة هو الذي يَرتبط بالتَّبرير، وبشكل مُباشرٍ أكثر من أيَّةِ نِعمةٍ أُخرى.

المحاضرة الخامسة عشرة

التَّبرير وعمل الرُّوح القدس

إنّ التغيير الروحي الذي يحدث في حياة المؤمن والذي يُسمَّى الخليقة الجديدة (2كو17:5) هو عمل الرُّوح القدس. وإنه لَمِنَ الخطأ أنْ نفترض أنَّ التَّبرير يعتمد على عمل الرُّوح هذا في الخاطئ، فالتَّبرير كما رأينا يعتمد على حياة وموت المسيح مِنْ أجل الخاطئ.

مِنَ المهم ألاَّ نخلط بين هذيْن العَمَليْن الإلهيَّيْن، لأنَّ التَّبرير يعتمد على عمل المسيح الذي أُكمِلَ الآن، فتبريرنا أُكمِل بكل معنى الكلمة. لو كان يَعتمدُ على عملِ الرُّوح القدس المُستمِر فينا، لظَلَّ غير كامل تماما، لأنَّ عمل الرُّوح القدس فينا ما زال غير كامل.

إنَّ الأقانيم الثلاثة في الثالوث يتفقون معا في هدف خلاص الخُطاة، ومع ذلك، فالكتاب المقدس يوضح أنَّ كل أُقنومٍ يأخذ دَوْرَه القيادي في القيام بجوانب مُختلفة من هذه الخطة، فيُوصَفُ الآب بأنه يحبُّ المفديِّين، وبأنه أرسل الابن ليكون مُخَلِّصهمْ، أما الابن فيُوصَف بأنه جاء ليفعل إرادة الآب وحَمَل خطايانا في جسده. أمَّا الرُّوح القدسِ فَيُوصَف بأنه قد أُرسِلَ بواسطة الابن مِنَ الآبِ، ليَشهدَ للمسيح، ويبكِّت على خطية ويَسْكُن في المؤمنين؛ لذلك يجب أنْ نميِّز بين ما يصنعه المسيح لأجلنا وبين ما صنعه الروح القدس فينا. وكما رأينا سابقا، فالتَّبرير ينشأ عن عمل المسيح لأجل الخُطاة.

إنَّ عمل الروح القدس ضروري لخلاصِنا، مِثْلُهُ مِثْلُ عمل المسيح (1كو6:11)، لكنَّ العَمليْن يستهدفان أغراضا مُختلفة، فعمل المسيح يُصالحنا مع اللهِ، بإزالةِ ذنبنا وإعطائنا برًّا جديدًا، -وعمل الروح القدس يُغيِّرُ إرادتنا ويجعلنا نثق في المسيح ونَتبعه. (لو تُركنا لأنفسِنا ونحن أموات بالخطية، لما أمكن رجوعنا للمسيحِ أبدًا؛ فالمسيح هو الذي حصل على خلاصنا، والروح القدس يقدِّم هذا الخلاص، ويشهد للمسيحِ (يو15:26). فعمل الروح القدس إذن ليس هو سبب فدائنا، بل نتيجةً لفداءٍ قَد صَنَعَهُ المسيح بالفعل. إنه دليل على تبريرنا وليس سببه.

صحيح أنَّ عمل المسيح يختلف عن عمل الروح في أهدافهما الخاصة، لكن لا يجب فَصْلُهمَا الواحد عن الآخر. ولا يمكن لأحد مُبرَّر أن يَخِيب من التجديد، ولا أحد مُجدَّدٌ أن يَخِيب من التبرير، فَفي حياة كُلِّ متجدِّد حقيقي يأتي وقت، يَعبُرُ فيه مِنَ الموت إلى الحياةِ، سواء بوعي أو بغير وعي، في ذلك الوقت، يتزامن التَّبرير والتجديد معا.

فالروح القدس يقدِّم استحقاق عمل المسيح للخاطئ، وفي نفسِ الوقت يُنشئ فيه ثِقةً جديدةً ومحبة جديدة للمسيح.

وللإجابة على أسئلة مثل: كيف يُمكن لإلهٍ قُدُّوس أنْ يُعطي رُوحه لخاطئ ما زال في الخطية؟ أو كيف يُبرِّرُ اللهُ خاطئًا، لَمْ يُقَدِّم له الروح القدس استحقاقات المسيح بعد؟ أيُّهما يأتي أوَّلاً؟ الإجابة الوحيدة هي أن مقاصد الله الرحيمة إنما هي مقاصد أزلية للمُختارين. لقد كان قَصده دائمًا أنْ يُبرِّرهم ويُجَدِّدهمْ، لذلك فَكُلٌّ مِنَ التَّبرير والتَّجديد إنما هما هِبَتا نفسِ النِّعمة الأزليَّة، وكلاهما قَدْ نشآ في مقاصدِ الله الأزليّة، ومِنْ ثَمَّ، فَلَيْست لأيٍّ منهما أفضليَّة أعظم من الآخر.

مُلخَّصٌ

1- نحتاج أنْ نفهم أنَّ عقيدة "التَّبرير" الكِتابيَّة هذه إنَّما هي واحدة مِنْ أمجاد الإنجيل المسيحيِّ. لا يوجد إيمانٌ آخر، يمكن أنْ يقدِّم هذا الحل الكافي لمُعضلة إمكانية أن إلهًا قدوسًا يُبرِّرُ الخُطاة بدون أيِّ تَقليلٍ مِنْ شأن الخطية، أو إنكار لعظمة قَداسة الله، ففي هذه العقيدة تَمَّ التكفير عن الخطية تماما، وقداسة الله تَمَّ إرْضاؤها تماما وقد أصبح الخُطاة مُخَلَّصين.

2- نحتاج أن ندرك أنَّه يُوجد أساسا نوعان مِنَ الدِّيانةِ: الدِّيانة التي تُعَلِّمُ أنَّ تبريرَنا هو أساسا، وبصفه مطلقة، عطيَّة الله المجانية مِنْ خلالِ بِرِّ المسيح وحده، والذي نناله بالإيمانِ. هذه هي ديانة الكتاب المقدس. وهناك أيضًا الدِّيانة التي تَزعُمُ أنَّ تبريرَنا يعتمد على قداستنا الشخصيَّة، وطاعتنا لله. ونحن نجادل بأن هذا يتناقض مع التعليم الكتابيِّ. ومِنْ ثَمَّ فهذه الدِّيانة زائفة. ومع نشأة الكنيسة المسيحية، ظهر هذا في الانقسام بَيْنَ الحقِّ الذي يخلِّص والخطأ المُنافي للكتاب (غل1:3-7).

إنه مِنْ واجبِنَا بالتأكيد أنْ نكتشف ما هو الحَقُّ كما أعلنه الله في الكتاب المقدس. ويُعَدُ هذا أمرًا ذا أهمية عُظمَى للامتثال لطريق الخلاص الذي أعلنه الله. إن عدم إيمانك بطريقة الله للخلاص، سواء كان ذلك بسبب إهمال أو كراهيَّة للحقِّ، إنما يعني أنك مذنب بخطية عدم الإيمان، وهي خطية شنيعة، وربما تكون مُميتة.